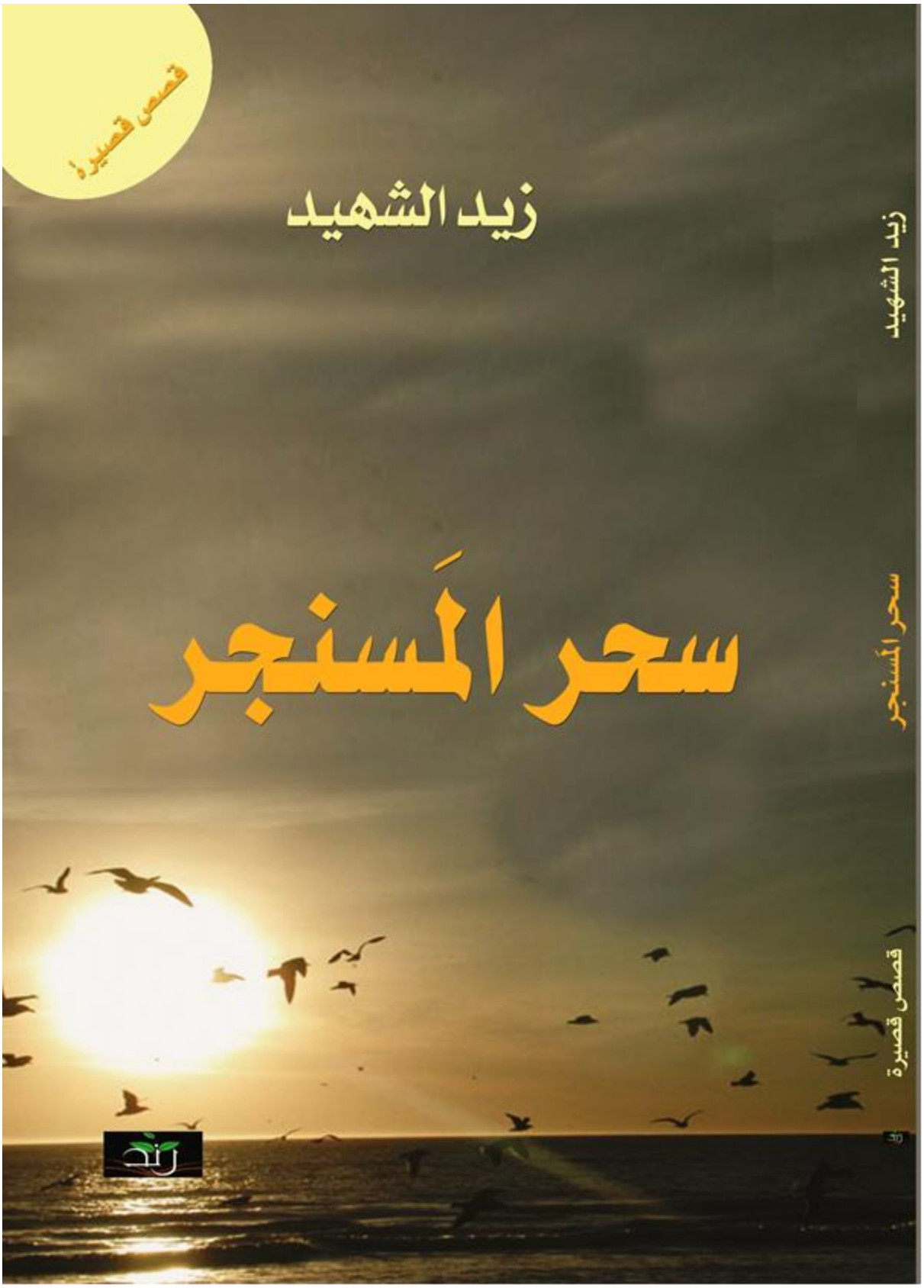
قصص قصيرة
زيد الشهيد
سحر المَسنجر
زيد الشهيد
سحر المَسنجر
قصص قصيرة
رند

زيد الشهيد

سـحر المَسنجر

قصص قصيرة جداً

المحتويات

(1) حلم اللحظة اليانعة

(2) افضاءات نـهر الألوان

أ- انطباع

ب- ارتشاف هيام

ج- هارموني

د- أنفاس مدن

(3) أحزانُـهنَّ وأفراحُنا

أ- سلوى وسيليا

ب- نظيمة وانطوانيت

ج- سناء وسوزانا

(4) ترادفات عابر العين

أ- ترادف غيظ

ب- ترادف رفض

ج- ترادف ضياع

(5) هُم وأنـا

أ- سأم باريس

ب- تزفيتاييفا

ج- أخماتوفا

(6) زكي ومها / مطريةٌ التهجسات

أ- زكي ومها ، والمَسـ.....

ب- أنا حقير

ج- الخنجر !!! آآآآآه

(7) سحر المَسنجر .. قلائد

أ- قلادة كونية

ب- قلادة من بهاء

ج- قلادة موسيقى

(8) سحر المَسنجر .. يناكد الريحان فيرديه جميلاً / الربيع

أ- ريحان ربيعي

ب- الزائد في حقل الريحان

ج- إنَّ الربيعَ ريحانُ

د- ربيع ريحاني

أرجوزة الزغاريد

تماهي

تمادي

تمادي ثاني

رومانس

تعالق

تشكيل

بورتريت

بوح

حيرة الأسئلة

بانتوماميم

حُلم اللحظة اليانعة

لم تبالِ بضوضاء الشارع ، ولا بضجيج الزحام المتفاقم للعربات .. هطولُها يُحدث فرقعةً مكتومة تقشعرُّ لها دائرةُ الماء الطينيّة ، وتدفع الوريقات الخضر السيفية المتجاورة إلى المَيل والاتكاء على القرينات وسط يناعة باذخة ... وحين تخلو اللحظة من أبجدية الحركة ويغدو الشارع ساكناً يكون بإمكان الصبي الذي دنا سِماع نغمة غريبة ، غامضة كأنها التكتكة المتقطِّعة تُعلن وجودَها الصوتي ، وترفع قامتها الذبذبية ندّاً رافضاً لنشازات الضجيج ... لفتت انتباهه / فجّرت هي دهشته .. تحركت تولي ليدِهِ ركنَ حقيبته المدرسية ؛ ولذائقته مهمة التركيز على الحركة المتعاقبة ... كانت القطرة تعلن تجاسدها قادمةً من قاعدة الخزّان الإسمنتي النائي الارتفاع الذي يُغذي المدينة بعذيب الماء .. ماء يرشح فيستحيل جيشاً من تكوينات كروية ترسم ماهيَّتها عبر خط الهواء الهابط من نقطةٍ تُلاحق أخرى هي خاتمة حياة عمرُها خمسون متراً .... لم يفقه الفضاء الماثل ذلك إنّما الصبي هو الذي استثار تأمله ورأى في القطرةِ الهابطة عالماً كريستالياً كروياً سرعان ما خلبه وأثار شهيته للولوج بعدما فجّرت شلالات شمس الضحى حساسية الاثنين : القطرة النزقة ، والصبي المُستثار .

توالد شيءٌ ما يشبه الحوار الشهي أو الدعوة المفعمة بالفضول يغمر دواخل المخلوقين ... القطرة تتماهى بقريناتٍ لها فيبدو الجميع كما لو كان قطرةً واحدة فيما تنشطر رؤى الصبي كما لو كانت عالماً متجانساً .... سمع همسَها / ترجمت هي جذله ... أرادت أن لا تنتحر بلا ثمن ؛؛ وسعى هو أن لا يفقد سلسلة الأحلام .. أبصرها تكبر وتتسع ؛؛ وشاهدته يدنو ويقترب ... نسيت هي ضجيج الشارع ، وتخلّت عن أبجدية العربات ، فقط كان الوجود الماثل المتشكّل إزاءها هيئةً حييّة لصبي خرج هذا الصباح مسحوراً ومسحوباً بنداءٍ كوني لا يدرك فهمه جعله يخلِّف عالم المدرسة ، وينسى حقيبته المدرسية متحركاً لهذا التماثل الفني / التشكيلي / الجمالي حيث جدرانه الشفيفة الشفّافة تتماوج لتمتص قلب الضوء الشمسي ، مستحيلةً كتلة نورانية / شذرية / مشعّة تنثُّ سحراً آسراً وتنشر دعوةً أخّاذة لم يستجب لها الما حول إلاّ الصبي ..افتضَّ اللحظةَ الهلامية والجاً رحم التوافق المائي / متّكِئاً باسترخاء على الجدار اللوني الفائر / غائباً عن تفاقمات حمّى الزحام وماسكاً بنوابض الجذل العميم .. هناك إذْ القطرةُ الهائمة ستنتحر على إيقاعِ السقوطِ الطبيعي بحكمِ الجاذبية المُهيمنة ، وصولاً لتمزيق رحلة التوجّه الجميل / حلم اللحظة العذبة .....

زلة 2002

افضـاءات نـهر الألوان

(1) انطباع

بهرتهُ فتنـةُ الألوانِ فساقتهُ إلى جِنـانِ الخَلق .. رَفلَ على خمائلِ تقاسيمِ البوحِ فعاجلَـهُ الروحُ بالإفضاء الدفيق . يجدُ في " كلود مونيـه " مُريداً لـه ، يَستقي من تلكَ الأناقـةِ الداخليـة التـي يتمتـع بها ، فتـأتي نتاجاتُه صدىً لطبيعةٍ تتشربُ اليناعةَ ، وتعومُ في إيقاعِ الألوانِ الهادئة . يُحدِّقُ في رعَشِ الزهور الطافية على الماءِ السارقِ لخضرةِ الشجر ، ويندهشُ لموسيقى دفينة ! لا يدري إنْ كانت تفوحُ من سطحِ اللوحـةِ أم تتعالى من منعطفاتِ روحهِ الجامع لعذوبةِ الماء .

كانت الطبيعةُ تندهُ بهِ لتنثر على صفحةِ بحثهِ أبجديةَ اليقين بأنَّها المآل والخاتمـة ، ومعها كانـت الألـوانُ تتعرّى بهياجِ دواخلها الفائرةِ فترجوه سكبَها على يناعةِ الذائقةِ التائقةِ للخلقِ الجميل ..

ومن هناك ! .. من سهوب النأي ؛ من الذاكرة الملأى بالجزعِ والقلبِ المترع بالمرارة يأتيـه صوتُ مونيـه : " نحنُ نرسم كما يغني الطير ! "

فيفيق .. !

يدخل ميدانَ الرِّضا ويهجر الصخبَ الذي تأتي بـه المدنُ هويـةً لوجودِها . يتأسّى لأشـهرِ الجَّزع التـي أبعدتـه عن دنيـاه الأثيرة ، ساعياً لتعويضِـها .. يقف أمامَ القماشـة التـي هجرها ويمسك شغفَ الفرشـاة المتأججة لسكبِ عصارتِها سعياً للخلق . أمامهُ الفراتُ وماؤه الفيّاض ، ثم الضفةُ الأخرى والبيوتُ التـي تركتها عشريناتُ القرنِ العشرين هويةً لزمنٍ لم يفتضُّه دخانُ عوادمِ العربات ، ولا وصلته ابتداءات هدير الطـائرات ؛ فقط تجمَّع حولـه صبيةٌ تنـامى عددُهم على حمّى فضولِهم لمشـاهدةِ هذا المـأخوذ بأبجديـة الطبيعـة ، ثـم راحوا يكبرونَ بوعيهم وانبهارِهم مـع تنـامي خلقِ اللوحـة وظهور النهرِ منساباً ، وصف أشجار الكالبتوس كثيفاً ، وشواخص البيوت متعاليـة ، وصياد يجر شبكةَ صيدِه ، وفتيات يجلسن عند الضفة البعيدة يتابعن الالتماعات البارقة خلل شبكةِ الخيوط المنسحبة من قلبِ المـاء إلـى حضنِ الزورق . وإذ يلتفت ليقيس انطباعَ دواخلِ الصِّبية يبصر " مونيـه " منتصباً بينهم وقد تراغت على سحنةِ وجهـه تعابيرُ رضا وابتسامةٌ ترسم عودةً ناجحـةً لعالمٍ أثير ، ونهايـةً كخاتمـةٍ نـاجزةٍ لانكفاءٍ أقرَهُ كبوةً بمثابـة مراجعةٍ .. مراجعةٍ ، لا غير .

(2) ارتشاف هيام

هامَ على هواهُ فانتشى ؛ وعامَ في هُلامِ الرحيلِ الغيمي إدراكاً للمبتغى . صارَ يجاهرُ بارتوائِهِ من بئرِ الألوان ، وأعلنَ أنّه شرعَ ينفصل عن محدِّداتِ العالم الماثلة ، ويتوه شغفاً في أبجديات البحث . كانَ يستلّ من مُتنسمات " فان كوخ " الغارقة في حمَّى طغيانِ اللون الواحد وضنآلةِ الألوان الراكضة رغبةً بالمصاحبة . يقف عندَ أبوابِ الهياج الضاج داخل دروبِ النفسِ التائقة للتعبير فيهمس للفرشاةِ أنْ تتهادى على القماشةِ البيضاء لتجسَّد سيحَ الروح تاريخاً يحكي كوارثَ وأحزاناً ، تِيهاً وضياعاً لأناسٍ سحقتهم رحى الآلام وأمامَهم في الأفق البعيد بواكيرُ عواصفٍ من دماءٍ فوّارة وغَم ..

فتألمَ ، فانكفأ ! ..

فواصَلَ ، فانسحقْ !

ثم توقَّفَ بغتةً ليضربَ بعدها بعينِ الانفعال على منابتَ تأجيجِ الوعي الذي يتَّخذ حالةَ عِصاب داهمه فجأةً ، لكأنَّ دخيلاً بغيضاً اقتحمَ أسوارَ مملكتِه الغافية على بحيرةِ السكون ذلك الذي أغواه إلى هجرِ مرسمِه يوماً ، وإعلان غيظهِ على الألوان المُنتظرة خلقةَ . صارخاً : " مَن ينهي عذابَ التعساء ويوقف هديرَ الألم ؟! " توازياً مع " كوخ " الصارخ : " كيف نسمح بأنْ تكون هناك امرأةٌ وحيدةٌ تعيسةٌ على الأرض " أردفها مع " الحزن " عنوان لوحته التي تُمثّل امرأةً منكفئة ترمي وجهَها في انحناءةِ ذراعٍ متهالكة . وحيث أن " كوخ " خرجَ من سيلِ المرارات التي ألمَّت به وداهمته مرتشفاً دواء الهيام بجلالِ الطبيعة جاهرَ هو بعشقِ البساتين وانثناءِ الشمس مَيساً وغنجاً ، انفضاضاً من شرنقةِ الدكنةِ الغالبةِ على أعمالِه . وفيما كان " كوخ " يهيمُ فينتشي متبارياً مع الفرشاة في (حقلِ قمح مع قبرة) كان هو يتماهى مع ساعةِ حصادٍ وفتاةٍ ريفيةٍ جنوبيةٍ تحزم سنابلَ الشعيرِ وتحملها هالةً من ذهبٍ فوقَ الرأس . يستدير " كوخ " فيبتسمُ له ، ويلتفتُ هو فيفاجأ بنفورِ القبّرة وطيرانِها الخاطف .

كلاهما التقيا في وهجِ الألوان ،

ولظى الاحتراق ..

وكلاهما افترقا عند أبجديةِ التعاسة ،

ومرافىء الضياع .

(3) هارموني

كما الفراشاتِ في جذوةِ التحليق وانطلاقة المدى على يفاعةِ القوامات حفّزَ الفرشاةَ لتؤرخ ارتقاء الروح تعبيراً ، سعياً لإنتاج اللوحة المرتجاة . القاعةُ تمتلىء جدرانُها بالمرايا ، والسيقانُ تتقافز استناداً على حافات اصابعِ الأقدام ، ابتهاجاً مع التويجات البيض للـ " تفتا " الناصعة التي تقبض على الخصور ، والسواعد الفتية تأخذ حركةَ الأقواس توافقاً مع انحناءات الرقاب في تشكيل هارموني يأخذُ إيقاعُه على

هدي الموسيقى الراسمة في انطلاقات الخيال شكلَ البجعات البيض يعُمنَ في بحيرة الحبور.(لقد التقى " ادجار ديغاس " في أحدِ أزقةِ باريس وهو يهمُّ بدخولِ بناءٍ تعالت طوابقُهُ العديدة المطلية بلون القهوة الداكنة . أراد أن يسأله عن سرِّ ولعِهِ الجارف في تجسيد فتيات الباليه كتوجّه فني : هل أرادَه مدرسةً تخصّه فتميّزه كخالقٍ خلاّق ؟! . ديغاس حدّقَ فيه ، وهاج في داخله سؤال : مَن هذا الأسمر الملامح الذهيل الذي قطعَ عليَّ الطريق ليسألني سؤالَ السرِّ ؟ وما الذي أتى به إلى زقاقٍ باريسي ليرشقني بغيوم الدَّهَش الطافح من عينيه ؟! غير أنّه تجاوز الحيرةَ ليأخذ به ويدخلان عبر بوابةٍ صاجيّةٍ عريضة تأخذهما لقاعةٍ تمتلىء جدرانها بالمرايا .. هناك عرف ديغاس أنَّ سائله قادمٌ من بطونِ الشرق ، من أزقّةِ السماوة ، بقلبٍ يحمل شوقَ التعبير والخلق ، عندها أدرك كم كان " ديلاكروا " مُغرماً بذاك الشرق وعوالمِه المبهمة بحيث قادَ اتجاهاً فنياً صارَ هويةً للرومانسية) هناك أبصرَهُنَّ في انهماكٍ بغيةَ الاستعداد ، تُحكم إحداهُنَّ مَشد الخصر للأخرى ؛ وأخرى تستطلعُ اكتمالَ مَظهر التي تسألها مُتَّخذةً استدارةً لولبية تشبه حركةَ بروفةٍ أولى .

لحظاتٍ وضربَ جرسُ البدءِ رنينَهَ ، فتوتَّرت الأجسادُ البضّة وتهيأت السيقانُ الفتيّة . أبصر الرجلُ المدربُ يومىء بإشارة الاستعداد ، وشاهد ديغاس أمامَ مستطيلِ القماشة البيضاء يُحفّز النظرَ ويستدعي المَلَكةَ فيما توجهت الأصابعُ تمسكُ الفرشاةَ ولوحةُ مزجِ الألوان البيضوية تهيئ ألوانَها النائمةَ لتصنع دنيا الخلق .

وعلى هدي الموسيقى ، ورقصةِ الفرشاة ، وتماهي الألوان ، وقفزاتِ الفَراشات البيض على الأرض الصقيلة ، وتباهي المرايا بالهارموني الحركي صار يتطلّعُ ذهيلاً ، تُعيده الذائقةُ والمَلَكةُ إلى قفزاتِ بنات الزقاق وهنَّ يتهادين إلى النهر لملىء الجرار والعودة على همسِ النهر ومخلوقاتِه الحاملة شفرات السحر والأسرار الدفينة . فيقرر مُقارعةَ ديغاس ، ويعده بعرضِ فراشاتٍ تخضّبها الألوان راقصةً على ارضٍ عشبية وهنَّ يُطلقنَ رسائلَ الولهِ غناءً للطبيعةِ ، وحبوراً بالشباب .

(4) أنفاس مدن

مع الضبابِ أو في سطوةِ شمسِ الضحى .. تحت تأثيرِ رذاذ المطر أو مع تقاداتِ لحظاتِ مغيب الشمس ظلَّ هو وفياً للجمال الذي يتراغى في روحِهِ المهتاج . أوجدَ لنفسِهِ تقليداً للتعبير ، أساسُه محاورتُه للألوان بحضورِ ابجديةِ الطبيعة .

كان و " كاميل بيسارو " يتبادلان المشاعرَ ويتصارعان في لُججِ الاحتدام . يهمَس له الأخير من هناك .. من على أرضيةِ الميناء النديّة : لن ابرحَ " رَوين " ولا اتركَ جسرَها الكبير ! والبحارةُ المنشغلون في إعداد الزوارق مع العمال المنهمكين في رفعِ حمولةٍ إلى البواخر أو تفريغِها منها سيأخذون منّي الاهتمام . ساحاورُهم بالذائقة ، وأوَرِّخُهم بالفرشاة ! " ؛ بينما هو يجمعُ شَتات ذهنِه المتوزِّع على " شِريعة حمّادي " والفرات الذي يغذّي قلبَ " السماوة " ، فيتمتمُ بوشوشةِ الحالم : " يلزمُني العوم في

فيوض اللحظة بغية القبضِ على ما أتجاوزك به أيها العائمُ في بحرِ الألوان .. بيسارو ! أُريدُ لفرشاتي أنْ تحفرَ على صوانِ الذاكرة التاريخية ما يُجسّد صفَّ النخيل المتراص ولعاً للماء وهو يغني للضفافِ أغنيةَ الطبيعةِ الأزلية ، وذلك الناي الذي صنعهُ عاشقٌ سومري كانَ يعزف به ليلاً طلباً لحبيبةٍ غيَّبها الموت ، ثم حين لم تعُد إليه رماهُ إلى الماء فتولّى النهر منذ تلك الحُقب والسنون ترديدَ فحوى الألم في عزّ الفراق ." .

يوم التقيا على قارعةِ عرض الدواخل كان بيسارو يرسم " رَوين " بمعاملها التي يعتلج قلبُها فينفث دخاناً ابيضَ ، ومداخنَ فاحمة تنهضُ من بناياتٍ أسقفُها قرميديةٌ حمراء ، وعلى اليسار جسرٌ بمتكآته الخمس يستأنس لدربكةِ حدواتِ الأحصنة التي تجرُّ العربات تحت سماءٍ نادت على غيومٍ فضيّة ليزدهي الفضاءُ ويتحقق المبتغى . وكان هو يجمع عِدةَ الفعلِ الخَلقي ويتحرك ليضع أيقونةَ مدينته السماوة على مرمى الهواء لتهربَ طراوةُ الألوان ، وتجفَّ خثرةُ الروحِ عارضةً صفَّ بيوتٍ على بستانٍ يمتصّ دكنةَ الاخضرار وقد تدلَّت من بعضِ الشرفات رؤوسٌ لصبيّات يتأملنَ المارة باهتمام بينما انشغلَ الصبيةُ الذين احتلوا السطوح بإسقاءِ طائراتهم الورقية خيطَ الانعتاقِ والانطلاقِ ، وتغذيةِ دواخلِهم الشغيفةِ برغاوي المتعةِ ، والبهجةِ ، والجذل .

السماوة .. 1- 18/نوفمبر/2007

—

نشرت في ملحق (أدب وثقافة) صحيفة الصباح العدد 1535 في الأربعاء 12 /2008/11

أحزانُـهِنَّ وأفراحُنـا

(1) سلوى وسيليا *

لحظةَ كنتُ أسيرُ (أنا) في دربِ السرد أغدقتُ عليها فيضاً من البهاء بينما أجزَلت (هي) عليَّ وسيعَ بسمتِها التي تذوقتُها عسلاً .. دنوتُ منها فاقتربتْ إلي . وهممتُ بالهمسِ أبغي تفريطَ هيامي على خمائلِ انتظارِ البوح فوجدتها ترفع سبابةً وتكبح سيلَ الإفضاء الذي شارفتُ على سكبِهِ ، موصدةً شفتيَّ بـ :

_ اتركْ ذلكَ لوقتٍ آخر ، ودعني أترجَّلُ في مهمَّةِ القول .. لماذا تريدون الكلامَ دائماً لكم ، يا مهيمنون ؟!

لم أرغب في صدمِها وإعلان أنَّها فتاةٌ على الورقِ وأنَّ عليها ألاّ تعترض ؛ وما سعيتُ لإيلامها بالتصريح أنَّها مجرَّدُ مفرداتٍ تشكلَّت لترسم روحاً تفيض وجسَداً يتحرك ، وأني قادرٌ على شطبِها وإبعادها عن فضاءِ القص . لكني قلت :

– سلوى ! .. أنتِ غيمةٌ تركتُها تتسللّ من سهوبِ روحي . وعندما هبطتُ بكِ على أرضِ الورقةِ شعرتُ أنّني أخسر ما لا يمكن تعويضَه . نحن نمنحُ شخوصَنا أجزاءً من حياتِنا ونهبها أعواماً مهمّةً من ملكيةِ أعمارِنا . فيوم رسمَ سيلانباً " سيليا " (*) من جموحِ خيالِهِ كانت مُجردَ طيفٍ ، ويومَ سكبَها على الورقِ صارت حياةً تمورُ بالهياج . تمرّدت عليه وراحت تُلبّي نداءَ الطبيعة التي أفردَت لها ذراعي الحبور . زرعَ فيها جموحَ أمٍّ كانت تعشق جِنانَ الغنى هروباً من يبابِ الفقر وعنفوانَ أبٍ خرجَ عن طورِ العائلة وأعرافها فتزوَّجها خادمةً أجيرةً تعمل في بيت الأبِ لساعاتٍ ثم تعود إلى كهفِ الحرمان . وما كانت البنتُ تلك التي اسمُها سيليا آبهةً بأصولِ أمِّها الوضيعة ولا عارفةً بعنادِ الأبِ نحو اتخاذِ قرارٍ يخالف الأعراف ، فاندفعت بغريزةِ الانطلاق ، وعاشت عشرينَ عاماً . وفي المحطة الواحدة والعشرين قالت لسيلانباً ازرق صدري بعدوى السل ودَع السعال يتعالى لأموتَ ميتةً صامتة لا يشيعني فيها غيرَ حبورِ الغابة وزقزقةِ طيور السنونو كمكانٍ منعزلٍ بكوخٍ في غابةٍ ، تماماً كما مات أبي " كوستا " في كوخٍ مستأجَر ، ومثلما ماتَ جدي " سالميلوس " تلك الميتة الصامتة المنعزلة في مخزنِ الغلال . "

– سلوى ! شخوصُ أعمالِنا تعيشُ فينا ، ونعيشُ نحنُ على سعادةِ تحركّها ... الغرابةُ في الأمرِ أنَّ السعادةَ التي نجنيها تأتي مستخلَصةً من سعاداتِهم وعذاباتِهم على السواء . سيلانباً كان سعيداً لموتِ سيليا لأنها أنهت له الحكايةَ وقدّمته روائياً منقطعِ الإعجابِ في النجاح . و.....

نهضت نافرةً يتعالى في صدرِها خفقُ قلبٍ عليل لم تعهده ، وجالت في ذاكرتِها أيامُ فقدِ الأب مرتحِلاً في مدنٍ بعيدة لا تصلها منه غير تحياتٍ وشوق وعهد عودة قريبة ؛ وعادت إليها لحظات موتُ الأمِّ بعدما أنهكتها أعوامُ الحصارِ وضيّقت عليها أيامُ خيبةِ الأملِ في شعبٍ نسي أرضَه بعد مَقدمِ النورِ وزوالِ

مسبّبات الكَمدِ وراحَ يحرث في ثرى الاقتتالِ ويبابِ الضغينة وآهاتٍ ترتفع من صدورٍ احتشدت بحسرةِ خِسرانِ الآمال . رمقته بعينين تتوهجان غضباً ، قائلة :

– أطلق عليَّ رصاصَ سردِكَ ، وارتقي إلى الذروة فأنا انتظرُ لحظةَ التنوير وخاتمةً أريدها تقول " تبّاً لكم ! " .

2008 / 2 / 27

السماوة

---

* سيليا أو موت في ريعان الشباب – رواية الكاتب الفنلندي سيلانبا الحائز على جائزة نوبل – ترجمة د.سلمان الواسطي – دار المأمون 1985

(2) نظيمة وانطوانيت

أترعت من وعوده أقداح الجذل ومشت على خميلةِ التدوين تستقرىء مباهجَ وأحزاناً ، نهارَ مسراتٍ ولياليَ تعاسةٍ . تكتب مساراتِ حياتِها مرتديةً ثوبَ بطلةٍ تتلقَّف مساحاتِ الورق بأقدامِ قلمٍ شرعَ يسكُب جذوتَه بانتظارِ اكتمالِ سردٍ مُقنعٍ يغري لذاذةَ القارىء سعياً لحيازتِها امتلاكاً وهيمنة . وكنتُ أنا أتابعها على خطوِ القراءة التي تبتغي مآل وتهدُف لإدراك نتائج . أبوها تلك التي كان اسمها " جين ريز" ويلزياً من انكلترا ، وأمها من الكريول سكان جزر الهند الغربية وأمريكا اللاتينية المنحدرين من أصل أوربي أو اسباني . وأبي كان بصرياً عربياً وأمّي سيلمانية كردية جمعتهما خيمةُ الاقتران رُغمَ تفاوت الطِّباع وبُعد المسافات . رسمتْ تلك التي اسمها جين ريز بطلتها على هويةٍ جديدةٍ سمتها " انطوانيت كوسوي " وفضّلتُ أنا لشخصيتي اسم " نظيمة " . الغريب أن الاثنتين لهما طباعٌ سمّاهما علمُ النفس طِباعاً وراثية ؛صاحبهما مَرضٌ لا مرئيٌّ قال عنه الأطباء " عصابياً " .

عندما التقيتُ جين ريز في إحدى حانات لندن كانت قد استلمت جائزة " و . هـ . سميث " لتوّها . لم تكن سعيدةً باستلام الجائزة . قالت لقد تأخَّرت عليَّ كثيراً . ما فائدة أن استلم جائزةً وأنا بعمرٍ أرى الموت يلوّح بمنجلهِ المشحوذ اللميع ليحصد السبعين من الأعوام في حين كنت أستحقّها وأنا في الأربعين . كلماتها أدمعت عيني وتراغى داخلي شعور البوح . قلت : تماماً هذا شعوري سيدتي . إنني آمل بحيازة جائزة نوبل لما كتبتُ وما أكتب . ما فائدة أن استلمها وأنا سأكون بعمر الثمانين ولا استلمها وأنا في الأربعين مثلك ؟ . قالت : " (أنا) سأرحل وفي فمي غصّةُ اللافرح . لكن عليكَ (أنتَ) أن تنتظر قليلاً فقد تأتيك جائزةُ نوبل قريباً وبلا رجاء . إنها لا تُعطى إلا للمبدعين الحقيقيين ." توقفت تتأملُ ما كتبتُ وطافت عيناها على رواياتي وقصصي وأشعاري وترجماتي والرسائلِ المتهافتة التي تردني من قرّاء

معجبين وكتّاب باهرين يثنون على تجاربي في التدوين والتجريب قبل أن تُكمل كلامها : " وأنتَ كذلك ، تستحقّها باقتدار . " . كنتُ أبغي شكرَها وأبدي تواضعي أمام جائزة كبيرة كتلك التي نالتها أو التي أشارت عليَّ باستحقاقها . كنتُ أريد أن أفوه لها بأني من عالمٍ يقولون عنه ثالثاً بعرف التقسيم الحضاري عندما غابت عن ناظري ؛ ولندن أعادتني إلى السماوة أقارن " أنطوانيت " بـ " نظيمة " فأجدهما يعجّان بالبراءة ، سائحتين على غيمة مشتركة من النقاء وسط فضاء اجتماعي لا يرحم . يسحق المرأة بأقدامِ العَتَهِ ، ويقودها باتجاه هوّة الظلام رامياً عليهما صفةَ الغباء . رأيتهما يتقاربان في العمر الثلاثيني وقد أنهكهما المرض العصابي وجعلهما خيطين من دخان يتسللان ليتعانقا ثم ينفصلان . أنطوانيت تذهب راحلة إلى " دومنيكا " لتعاني من نظرة التخالط الاجناسي المُعيب في نظر الجميع فيما " نظيمة " عراقية وسط كيان ارتضى الجناة خلطَ أوراق المذهبية لتمزيق لُحمته الاجتماعية .

الاثنتان تعيشان براءةَ الحياة بقلبينِ تحتشدُ فيهما أمواجُ الصفاء بعيداً عن زَبَد الحقدِ البغيض . هكذا خلَّدَت جين ريز بطلتها في (بحر ساركاسو العظيم) وهكذا أردتُ لبطلتي أن تُخلَّد في روايتي التي لم أضع لها عنواناً لحد الآن .

الجمعة

2008/3/21

—

* بحر ساركاسو الواسع – رواية جين ريز – ترجمة فلاح رحيم جاسم – دار المأمون 1987

(3) سناء وسوزانا

تراكمٌ فيضي جَموح من آهاتٍ ألفاها (الجالس على أريكةِ السرد) تكبرُ وتتَّسِع . تغور ، فتفيض . وتضرعاتٌ من حنينٍ جارفٍ ترجمها تواليات لمسرّةٍ غائبة وأفقٍ يحتشد بالضباب . يجاسدُ الأفكارَ فلا يحصد غيرَ رغبة التعبيرِ الهطول عن آلامِ الإنسانية المعذبة ؛ تلك التي ولَجت متاهاتِ وعيهِ فأفرزت حُقباً من ضياعاتٍ وتواليات من هَمٍّ مستديم ، ثم استكانت أخيراً إلى مبرراتِ الجدوى الزائفة .

تقيّده تابواتُ الماحَول (هكذا عندما يكون خارج الورقة) ، وتعيق انطلاقته في البوح (حين يفكر في ارتداء غيومِ الحرية) فلا يجد غير أن يصرخ " أيها الحزن : ما لكَ على الدوام تطرق أبوابَ هجوعِنا الشحيح ؟! " .. لا يسمع غير قهقهاتِ الصمت تدوّي في بريّةِ انتظاراتِه التي استطالت فغدت تلك الحبيبة

كثكلى قيل لها سيأتي الغالي العزيز وهي لمّا تزل تنتظر وتنتظر ، صارخةً بعد توالي يأسٍ مرير : لقد مزّقتَ أيامي ، وأخذت معكَ كلَّ الهناءات ..آآآآآآ .. "

الكلماتُ التي يُمطرها على الورقة تتقافز أمامَ عينيه اللتين سرعان ما يغشيهما دمعٌ دفيق يشكّل غُلالةً من غَشاوةٍ ، وحشرجةً صارت ترسم وجودَها في حلقهِ تساوقاً مع ألمِ بَطلِه الذي دفعَ به إلى خضم السرد ليتولّى مهمّة حصاد الفراق الأليم والنأي الثقيل لبؤرةِ وفاءٍ سمّاها " سناء " قالت له يوماً وهي في عزِّ الشغف به والوَلَه إليه " أحبُّك ، فلا تسحقني ! " فمارس بحقّها فعلَ التجني وارتمى بين ذراعي الهجر ليُشبِعها من مائدةِ الفراق صحونَ اللوعة ، وأرغفةَ التجنّي ! تماماً كما بطل (بيدرو بارامو) الذي رمى به (خوان رولفو) على أديم " كومالا " هامساً في أذنه : تُه في ثنايا البحث عن " سوزانا " التي هجرتك " راحلةً إلى العالم البعيد .. وها هو الآن يهمس في ذاكرة بطله : جُس حالة الضياع الأبدي التي لفّتك ! وقِفْ عند زاوية الاختلاس لشبيهِكَ الذي اسمه بيدرو .. انظر إليه يطل من نافذة غرفته يتطلع علَّ " سوزانا " تعود إليه من عالمٍ غدا غيبياً ، وتأملْ كيف أهملَ " كومالا " كإقطاعي مهيمن فجعلها تستحيل قريةً من قِفرٍ ويباب ، لا يسكنها إلا الريحُ والصفيرُ ولا يرتادُها غير الغارقين في رمالِ الوهم ، والتعثُّرِ ، والسراب ."

يترك بطلَهُ بين أسطر السرد ويتَّجه لمهمّة إحكام خيوطِ الحِبكة وتشابك الأحداث ... وإذ يعود يروح يبحث بين الثنايا عمّا حصل لذلك الموبوء بالترحال . ما جرى له ، وما لاقاه من أهوال . يجدّهُ يلفّ أزقةَ السماوة بحثاً عن سنائهِ التي تركها يوماً قبل رحيله صوبَ بلدان نائية لا تربطه بحركةِ العالم سوى طيورٌ راحلة تزحف جماعاتٍ جماعات في سماء تحتضنُ اجسامَها المغزلية وأجنحةً تتيحُ لها حرية الهفهفةِ . (سنوات الرحيل تجاوزت العقد ، وانتظار الحبيب له مدى من الصبر !) .. الأزقةُ تستقبلُه بجفاءٍ ، والأرائج التي حلُمَ بشمّها وأمِلَ اغتراف أمواجِها ما كان لها أثرٌ على أديمِ الفضاء . فقط كانت رائحةُ عِتابٍ وبقايا دموعٍ جافّة تتشربها خثرةُ هواءٍ كتيم ؛ ثم على بابٍ صاجي لبيتٍ مقفلٍ حُفِرت عليه مفردة " انظر ! " .. فنظر ! سهامٌ عديدةٌ تتوجّه إلى قلبٍ فقدَ حيويته وشحِبَ وجودُه ولم يبقَ من الوضوحِ سوى آهة مديدة : آآآآآآ . قال بلسان السرد المُضمَّر : هذه سهامُ هجرِه ولامبالاته تجاه مَن توشَّحت برداءِ الوفاءِ أعواماً وأعواما سيُدركُها المتلقي وسيعذرها بينما سيصبُّ جامَ غضبه على هامةِ الجاحد النكور .. كذلك قال : سأترُك بطلي في جزيرة الضياعِ والفقدِ يعيشُ وحيداً قميئاً منبوذاً يتطلّع علَّ " سناء " تأتيه فتُعيد إليه ثراءَ روحِه التي شرعت في رحلةِ العذابِ واتَّجهت صوبَ جعلِ دواخلِه تستحيلُ قِفراً يباباً وخواء ، منتظراً ريحاً ستأتي وصفيراً يقصُّ حالةَ سردٍ يتوازى وسرد بيدرو بارامو المُعذَّب ، الضائع ، الحسير .

الجمعة

2008/3/14

---

* بيدرو بارامو – رواية الكاتب المكسيكي خوان رولفو – ترجمة مروان إبراهيم – دار المأمون 19

ترادفاتُ عابر العين

(1) ترادفُ غيظٍ

غرِقت في يمِّ البحث ولم تستكن إلا على موعدٍ باحتضان ذكرى . ولابت كما روح ولوع يبتغي حيازة رفرفة أمل . تضمّها شقّةٌ في طابقٍ بعيد ينأى عن الأرض ، وتلفّها طوايا أعوام من الثبات ؛ ثم تواليات صور تجسّد أزقّةَ تخفّي ، وخارطة تهجّس ، وفضاءات لنضالٍ استحال أسطرَ على صفحاتِ كتب . وأنا اللاهث من فرطِ الطوابق التي خلّفتها والسلالم التي ارتقيتها استطعتُ الوصول . كان رئيسي قد أشار عليَّ من بين عدّة صحفيين أن أجرى معها لقاء الجحود ، وأثير فيها غبار التغاضي الذي راكمه الإهمال .. سمراء رأيتها وقد امتلأت قليلاً فنأت في الشبهِ عن صورة تلك التي قارعت عَنت الفرنسيين وهيمنتهم ، وابتعدت كثيراً عن تلك التي بشّرت في الانتصار فيما تنازلت تلك الأنامل عن الثبات (ذلك الثبات الذي زرع القنابل فأرعب المحتلين) وبدت مرتعشةً لا تقوى على السيطرة .(تذكّرتُها ! .. تذكَّرتُ العراقية التي جار عليها الأشقاء في القومية ، وتنادَه لتدميرها الأخوةُ في الدين . فراحوا يمزِّقونها بالسيارات المفخخة ، والعبوات الناسفة والأحزمة الانتحارية كريهة الذكر . ولم يتركوا لها غير النواح وذكرى جحود الأهل ، وترَّحم مَن هو بعيد عنها في القربى قريب منها في الإنسانية ..) .. قلت :

_ جميلة بوحيرد .. أين أنتِ الآن بعُرف النضال ومقارعة المحتل ؟

لم ترد ! .. كانت أتعبَ مِن أن تفجّر بوجهي خيبةَ الأمل ، وأوهى من أنْ تقول كان المستعمرُ أرحمَ على أبناء شعبي من أخوتي .. كانت تريد أن تفوه برميها في شقّةٍ نائية ؛ فلا ضيف يزور ، ولا وفاء يطرق الباب ، فقط ترى من خلال شاشةِ التلفاز القديم الأبناء يسرقون خبزَ النضال ويتقاسمونه مع عدو الأمس .

– جميلة بوحيرد .. أهكذا هي مُحصِّلة النضال ؟ أصادقٌ مَن قال : الثورةُ يخططُ لها المفكرون ويصنعها الأبطال ، ويسرقُها الجبناء ؟ .. أحقّا أننا العرب نمتاز بالجحود فننسى رجالاتنا النماذج ونُعلي هامة المتزلفين ، مستبدلي الأقنعة ، سليطي الألسن ؟ .. أصدقاً أننا لا نعير همّاً للتاريخ ونغض الطرف عن لعنةِ الأجيال ؟

ارتعاشُ أنامل جميلة ولّد لي ذكرى جدّتي التي خسرت في عشرينات قرننا الماضي ثلاثةً من أبنائها / أعمامي ، ولم ترف لها خشية ولا قهقرها خوف . وظلت منتصبةً على قِمّة الجَلَد ، ومتحدّيةً جبروت الموت الذي جاء ليهزّ إيمانَها .. هاتفةً :

عمت عين التجيب اهدان / وتكمطة على رجليها

ابني المضغته البارود / فاطمته على سركيها

ثم بعد أعوام ماتت على ذكرى أبنائها الذين لم ينصِفُهم أحد ، ولم يُذكَروا كمضحّين ، ولم نسمع من يقول عنها أنها أمّ الشهداء ، ذلك أنَّ الذين جاءوا فكّروا كيف يجنون لهم فاكهةَ المراكز العليا ويحصدون لأبنائهم سنابل الرفاه العميم .

كنت أنتظر الجواب من جميلة ..

لكنَّ جميلةَ لم تنطق !

جميلةُ كانت ممتلئةً بالغيظ ؛ بينما صورتُها المُعلقة قبالتي على الجدار ترجمت لي وجهَ فتاةٍ كانت بواكير بسمتها توحي بغدٍ مشرقٍ .. وألقٍ بهي .

2008 / 5 / 26

(2) ترادف رفض

فرشاتُه أترعت من بحرِ الألوان وانتهت تُجسّد نصَّ الغياب .. يلهث وراءها كيما تلتفت لتحتضنه ، وتضمّه كما طفلٍ جائع لحنان أمٍّ رؤوم . هو الشعرُ هذا الذي صرف العمر يتهالك عند عتبة رضائها به واستقبالها له . وأنا الصحفي الذي اندفعت بعدما كلّت أقدام سؤالي عنها أجوب الفضاءات واعبر السماوات ، فأدركها في إحدى حواري سان دييغو في ولاية كاليفورنيا ، حاملةً حقيبة يدٍ (أبصرتُ وهي تستخرج من جوفها منديلاً ورقياً شفّافاً لتزيل عن وجهها تراكمَ بردٍ داهمته تياراته) تحوي " روجاً " و " قارورة عطر " و .... " قلماً " فاستنتجت أنَّ القلبَ عندها يشتعل ، والشِّعر لما يزل يتوهج ، والقلم في طور يفاعته لم يشخ كما شاخت هي ظاهرياً . وجدتها تنقل الخطوَ وئيداً وتمسح الدرب بتمهل مَن يخشى على الروح أن يتهشم لا على العمر أن ينتهي .

أدنو منها وأفوه هامساً بعربيةٍ تفوح بنكهةٍ عراقيةٍ ونغم جنوبي :

" صورته تنامُ في أهدابي

تصحو معي

تتبعني

تحوم عند بابي

أقرأُ ، أو اكتبُ ، أو ألهو مع الصحابِ " *

فتستديرُ نافرةً !

ريمٌ كأنّه سمعَ صدى مدينةً بعيدة اسمها " العمارة " فجفل !
سحبته تواليات صور نائية ، وذكريات فرَّت هاربة فراح يستجير ببقاياها أن لا تشحب ...
قالت : " من أنت أيها الأسمر الغريب ، ومن لقَّنَكَ هذا الشعر ، وكيف أدركتني ؟ "
قلت : لميعة ! جئت ابحث عنك في رمضاء الأيام وفيافي الهجر الذي لا ندري هل تسببتِ أنتِ به أم نحن الجُناة عليك ؟ .. انقل إليك شوقَ محبيك ، ونداءَ لياليكِ التي تركتِها عند ضفاف دجلة . بوحُك يا بنت عباس عمارة تميمةٌ عشقٍ يحملها مُحبّوكِ في الدواخل ، وشعرُكِ تراتيلهم الطقوسية يؤدونها في معبد الوفاء لك .
انفتح وجهُها ، وعاد ألق خمسينات القرن الماضي يحكي بهاء فتاةٍ عشقت الشعر ولهاً فاستهام بها ؛ ودنت من شاطىء الخلق فاختطفها إلى جنان لذاذاته المائية الغامرة . قليلاً وعادت تنوء بأعوامها السبعين . ترفع منديلاً ورقياً استخرجته من جوف حقيبتها لتمسح دموعاً شرعت تتخذ مُسرَبين من أخاديد وجهها ، .. توقفت للحظات ، وبدت كأنها غابت عني ؛ ثم عادت لتستجير :
ـ خذني إليهم ؛ أحبتي .. خذني إليها ، مدينتي !
ولم تكمل ! فقد استفززتها كما يبدو صورٌ تراكمت في الرأس ، فردَّت متراجعة :

- لا ! .. لا ! ... لقد تلوث العراق بسكاكين النحر الآدمي ، وطُعِنت شوارعه بهمجيةِ السيارات المفخخة ، ووئِدت أحلامه بأيدي أهله الرعناء ..

صمتت قبل أن ترفع رأسها تتطلّع في عينيَّ الضاجتين بسعادةٍ لقائها وتقول :

- مَن ادخل إليكم حقدَ الغرباء ، وأترعكم بدماءِ الأبرياء ؟ .. مَن أوغلَ فيكم هذا البغض الهمجي ، وانتزعَ من قلوبكم شواطئَ الحنين ، وسماءَ الروح الرحيم ؟

رفعت منديلها الورقي من جديد لتمسح عرقاً نضح على جبينها المتغضن ، ممررةً إيّاه على فمها المزموم وهي تهمُّ بعبور الشارع إلى الرصيف الآخر ، تاركةً كلاماً كثيراً لدي يضج به الصدر ، ورجاءً عميماً كنت جمعته لأنثره في فضاءِ مسمعها بالعودة إلى العراق ؛ مرددةً :
" لا ! لا ! لا أعودَ ...
لن أعود ! "
فأعودُ أنا خائباً ، وفمي يردد صدى تلك الصورة التي ارتسمت في مخيلتي لتلك الفتاة التي وقفت يوماً تعلن أصالتها بقصيدةٍ عراقية :
- تُدخّنين ؟
- لا !
- تشرَبين ؟
- لا !
- ترقصين ؟
- لا !
- ما أنتِ ..

– كلُّ خمولِ الشَّرقِ في أرداني . (**)

(*) .. (**) من نصّين للشاعرة

2008/6/2

* نشرت في مجلة (تراسيم) العدد الأول / ربيع 2009

(3) ترادف ضياع

ما لها غيوم بودابست تغمر فضاء مهمتي متناغمةً مع غيوم الشرق التي خلّفتها ورائي كما لو كانت تبغي إعاقة لقاء حسبته سيجري بيسر يدفع بي للعودة إلى بغداد مُحمّلاً بسبقٍ صحفي يرسم مدوَّنةَ بوحٍ راكمتها أعوامٌ تربو على الثلاثين ... وجُلاس مقهى (البلاتو Balaton) الذين أبصروا سحنتي الشرقية برّروا بللي من المطر الغزير الذي واجهني وأنا أدخل العاصمة ، قائلين أنَّ بلدانكم الصحراوية محكومة بحرمانها من الأمطار . وعندما قلت لهم أنني أبحث عن اعتقال الطائي ، عراقية في ضيافتكم منذ ثلاثة عقود ابتسموا لمحاولة تعريفي بها . لم يُبدوا غرابةً بقدر ما قالوا أنها خرجت للتو ، وإذا حثثت الخطى ستلتقيها في محطة (الكلتي Keleti) إن لها لقاءً مع ضيوف ستلتقيهم في منتجع (شيوفوك Siófok) ، سيأخذها القطار إلى هناك .

كانت المحطة تعجُّ بالحاثين الخطى على الركوب أو النازلين توّاً مقذوفين من بطون القاطرات الومضية التوقّف والانطلاق . لذلك يغدو جنوناً إن جعلت مخيلتي تمنحني رصيد رؤيتها رُغم علمي بطولِها الفارع الذي يعينني على مشاهدتها ووجهها المغمور بالفتنة ذلك الذي كان يطل من شاشة التلفاز ليحاور ضيفاً يعلّق على فيلم اختاره برنامجها (السينما والناس) .

كل الذي فعلته هو الارتماء في مدخل أول باب يتوارَب لأول قطار أشاروا عليَّ لصعوده صوب مرادي .

وفي (شيوفوك) لم أحتج إلى الكثير من البحث وصرف الزمن فالكازينو الوسيع المطل على البحيرة عرض مناضده جميعاً بجلاسه الذين راحت باصرتي تجوس وجوهَهم وتتملّى ملامحهم فتخبرني أحدى المناضد بامرأة لولا ذلك الشَّعر الطويل المسترسل الذي ما زال محافظاً على رونقه وبهائه لخلتها ليست اعتقال التي جئت لملاقاتها وحصد سنابل الرومانس من حقلها اليانع وقطف فاكهة الذكريات من بستان ثقافتها المُفتقَدة . رأيتها تجلس لوحدها منفردةً كأنها تنتظر صاحبَ وعد ؛ لذلك عندما وقفت إزاءها منتصباً ، قالت :

– أهلاً أنا بانتظارك ! هيا اجلس ارتشف قهوة عربية سوداء .

تناولت القهوة ، وعلى إيقاع خطى الود ورغبتها في الترجّل تركنا المقهى متخذين درباً تحفّه أشجار جوز هائلة . طرحتُ فكرة قدومي قاطعاً شسيع المسافات للقائها مبدياً رغبات مشاهدين ما زالوا يكحِّلون عيونهم بمرأى طلعتها الجميلة ونقاشها المؤثر وهي تطل من على الشاشة الصغيرة مع ضيوف يمتلكون باعاً من الثقافة الفنية . حوارُها الممتع يخلق معرفةً تغترفه ذائقة المشاهدين فتلج هي إلى دروب ذاكراتهم ذائبة في بوتقة ذكرياتهم . ويوم خَلت الشاشة من طلعتِها وعرف المحبّون مغادرتها الوطن مُجبرةً أطلقوا حسرات الألم ؛ وعادوا بعد تلك الأعوام الطوال يطالبونها بالعودة والإطلالة من جديد .

تباطأت الخطى ، وأحسستُ أنَّ ساقيها لا يسعفانها على السير بوثوق .، وقبل أن أفوه بسؤال عمّا اعتراها اكتشفت أنها كانت تنشج ، تسكبُ دمعاً شكَّل سيلين تدفَّقا على وجنتين غدتا شاحبتين وبانتا متغضنتين أشد مما أبصرتهما في المقهى ، ما لبثا إن راحا يتهاطلان أرضاً كحبّات مطر . ورحت أنا أبطيء المسير خلفها اجمع الحبات البلورية في قارورة الخيبة .

وأسمعها تمتم بما قاله المعري يوماً : تحطمُنا الأيامُ حتى كأننا // زجاجٌ لا يُعادُ له سبكُ .

وأسمعها أيضاً : الشاشةُ لم تعُد لي ، والعراقُ صار الحلمَ البعيد الذي لا أظن أنني سأمسكُ بتلابيب حنوّه .

وأيضاً أسمعها : غربةُ الروحِ لن يقدر نداءُ الوطن على محوِها .

وفيما كانت تسير كما الحالمةِ وتغيب عنّي في خثرةِ ظلالِ أشجار الجوز الكثيفة واصلتُ جمعَ حبّاتِ دمعٍ أضفتها إلى قارورةِ الخيبة . حبّات يومَ نثرتها على الورقِ أعلمتني أنَّ بودابست تتوازى وبغداد ، وأنهما عاصمتان مهما امتدتا لا تلتقيـ..... .

السماوة
2008/12/10

معهم أنـا

(1) سأم باريس

ملبدةً بدت السماءُ ، والليلُ حزنيَ الأكيد .. الطَرقاتُ تتوالى على بابٍ أردتـه اليوم مُغلقاً بوجـهِ من يبغي زيارتي ؛ ذلك أنَّ لـي بعيداً يموتُ اللحظـة . أرى تابوتَـه الصاجي محمولاً على أكفِّ حفنـةٍ من الأصدقاءِ بغية وضعه على عربـةٍ تجرّها أحصنـةٌ خُصصت لنقلِ الموتى إلى مقبرة (مون بارنـاس) وسط بـاريس فأنظمُ إليهم . كان زارني بالأمس عندما كنتُ أحاور الصحراءَ التي أعجب بها ديلاكروا من شرفةِ بيتـي المطلة على حركةِ الخارج إلى البادية من بدوٍ ومن حضرٍ أو القادم منها . دفعتُ إليه بصينيةٍ تحملُ دلّـةً برونزية تحوي قهوةً عربيـةً سوداء ، وعدداً من الفناجين . وكنت أقرأ في كتابٍ استللته من مجموعةِ كتبٍ لأقرأ فيها قتلاً للجزع الذي هجم عليَّ ساعة عصر ولحظات أنبأتني بغروبٍ عتيم سيأتي محمَّلاً بخبرِ الحزن . قلت اشرب من قهوتنا العربية وابعد ذيول الخمرة المتقهقرة في دروب رأسِك المُحمَّل بالخدر .

لم يمد كفّاً تلتقط الدلّة ، ولا رفع فنجاناً ، إنما قال :

- تركت خلفي باريس وجئتك إلى السماوة لأقول لك غداً أموت .
- ما الذي تقوله ، يا شارل ؟
- الشلل اخذ مني الطاقةَ وابعد قدرتي على الإمساك بقلمٍ يخط قصيدة نثر أردتها درباً حداثياً لشعر قادم يمتطي حصانَه الموهوبون فيقولون كان قائد العربة شارل بودلير ونحن ركابها السائحون في رياض الشعر .. أنت هنا تتمتع بهواء صحرائكم الرائق ، وأنا سئمتُ باريس ؟

كلماته الأخيرة جعلتني اقلب الكتاب الذي بيدي لأقرأ عنوانه ، وأقول مندهشاً :

- سأم باريس ؟! .هذا عنوان كتابك الذي بيدي .
- اعرف ذلك .. ولهذا تركتها خلفي بكل شوارعها الشاحبة ، وحواريها التي تجاهد في التخلي عن رتابتها ، ونهرها الذي أعشقه ماءً وضفافاً وزوارق تلعب على صدره وآتيك أعلمك بموتي قبل أن أُتمم قصائدَ هذا الذي بين يديك .

في قمّةِ يأسِه كان ، وفي خضمِّ الأسى . طافت في رأسي سنواتُ تشردِه وامتعاضه من حياةٍ قست عليه كثيراً أو هو لم يُحسن عيشها ، أو هو الإبداع الراهص في جوفه لم يُتح له العيشَ الرغيد والذي لا يريده مخلوقاً عادياً بل خلاّقاً يزلزل الواقع ويترك حَفراً في الذاكرات الإنسانية .

قلت : إذا كان تنبؤك في محله سأحضرُ جنازتَك وإنْ لم احضر لحظات احتضارك !

حضرتُ !!

تلك الساعة عصفت بهياجِ أمطارِها ، والسماءُ أبت إلا أن تهدر قاذفةً بحمولـةِ غيومِها من المطر . ونحن نتَّجه إلى المقبرة ، أفراداً معدودين . أتخيله مغمض العينين يحلم بعالمٍ يخلو من السأم ، ويتخلّى عن السوداوية .. أتخيَّلُه يدوِّن على صفحاتِ الفضاء المفتوح شلالاتٍ هادرةً من قصائدَ نثريـةٍ لا تمُت

إلى المألوف بشيء ؛ فيقفز إلى ساحةِ شقائي جرحُ عزاء ، وألمٌ راح يصرخُ في داخلي قولاً لنيتشه لا أدري أين قرأته ، يقول : " النوابغُ يموتون شبّاناً لأنهم طيبون أكثر مما تستطيع الأرضُ تحمله . " .
فأضعُ على شاهدةِ قبرِه باقةً من أعجابٍ ، وقصاصةَ ورق كتبتُ فيها :

- " نَم أيها الحي البهي ، وسطَ الأحياءِ الأموات . "

2009 /2 /12

(2) تزفيتاييفا

كانت سويسرا باردة آنذاك .. لكن عيادة (فال – مون) على النقيض ؛ تزخر بدفءٍ متنامٍ يخلقه صدرٌ لمريض مسجى يزفر أنفاساً حرّى فتزرع على وجه الممرضة المنتصبة عند سريره مسحةَ حزن ، ويسري في كفِّها التي تتسلل إلى ما تحت الوسادة تيارُ رعشة . ذلك أن العين تتابع لحظات همود الجسد ، والأنامل تنتظر قراءة الأسطر لمجموعة الرسائل التي كانت أثمن ما يعتز بها لافظ الأنفاس الأخيرة .
فضولها يدفعها إلى رغبة اكتشاف الفحوى ، واطِّلاعها على مسببات اهتمام المريض بها ..
في انهماكِ إعادةِ قراءتِه للرسائل كانت تقتربُ منه ، تسألُه عن حاجةٍ يطلبُها تلبيةً من ذاتها لمعاونةِ مريضٍ يحسبُ الأيامَ لرحيلِه القريب ، فيردُّ بالشكر رفضاً ؛ مع نظرةٍ يسكبُها استغراباً لعينها الزائغة وهيَ تحاول اقتناص كلمة أو بضع كلمات ترسيها على المضمون ..
أدنو منها ؛ وافوه هامساً في مسمعها :

- لا تُقلقي المُعنّى ! .. لا تزيديه ألماً !

لم تستغرب نصيحتي ؛ ولا أثارها تدخلي .. فقط استدارت لتأخذ بيدي إلى النافذة التي أظهرت لي حديقةً بيضاء ؛ أشجارُها يكسوها صقيعٌ يستحيل ماءً يقطُر ، وبالتفاتةٍ سريعةٍ ولّدتها حركةُ أن لا يكون قد أبصرها تسحبني مع انه بعيدٌ عن الوعي ، قريبٌ من الغياب :

- يا سيدي .. انه ريلكه ! راينر ماريا ريلكه ! . يصرف جلَّ الليل يقرأ في هاتيك الرسائل ، وفي المنام يحلُم بامرأةٍ يردِّدُ اسمَها عالياً ، كأنّه يناجيها ، أو كأنها تستعطفُه اللقاء .
- تقصدين ماريا تزفيتاييفا !

بفم يتسع اندهاشاً تسألني :

- أتعرفُها !

- عشرة أعوام كان تُمنّي النفس بلقائه.. وأربعةُ أشهرٍ اختزلا الزمن ليتراسلا بالبوح اللهيف. هما على موعدٍ في الأيام القادمة !
- ماذا ؟!! .. ولكنه سيموت الليلةَ ، يا سيدي ؟!
- نعم ! نعم ! .. سيموت ؛ وستبكيه تزفيتاييفا كثيراً !

ابتعدَ البياضُ عندما تململَ المحتضر ، واستدار رأسينا عن النافذة لنتوجه إلى السرير .. رأيناه يفتح عينيه ويبتسم . يسحبُ بنظرةٍ منفتحةٍ وجهَ الممرضةِ ويدع لفمِه البوح :

- خذي مجموعة الرسائل التي تحت الوسادة ، واقرئيها !

بهتت لطلبه ، وقبل أن تُقدِّم اعتذاراً على فضولٍ حدست أنه اكتشفه فاه :

- لا عليكِ ! وبعدما تقرئينها سلّميها إلى هذا العربي . فهو أديب يدركُ أهميتَها .
- ريلكه ! لا تقل ذلك .. ما أنا سوى عابر طريق أثارني فضول ممرضتك في معرفةِ أسرارك فتوقفت ارجوها أنْ لا تغيظك !
- لا عليكَ ! .. الموضوع الذي يبدو سرّاً اليوم يغدو خبراً جهراً غداً ..

كدتُ أُصدِقُه الكلام ، وأضيف أنَّ تزفيتاييفا ستتولى استحالته خبراً فتكشف الرسائل المتبادلة بينهما ولو بعد حين عندما راحت أطرافُه تبرد وجسدُه يهمد . يغمض العينين فتهجم على مملكة وجهه صفرةٌ جامدة ، ويشيعُ بياضٌ يمتص شحوب الغيوم لينثره على التقاسيم التي هتفت أنَّ المختلس الجاني مرَّ من هنا ، وأن آخر ما قاله المحتضر :

- تزفيتاييفا ! لقد سبقتُكِ لكي أُنظِّم الوضع قبل وصولِك ! (*)

السماوة 15نيسان 2009

(*) ارتأينا قلب الكلام الذي جاء على لسان تزفيتاييفا متوجهةً به إلى ريلكه بعد موته : " لقد سبقتني لكي تنظم الوضع قبل وصولي . " .

(3) أخماتوفا

كئيبةً بدت ردهة رقم (2) في مستشفى (البلشفي) ، تماماً مثل كآبةِ الجرحى الذين تبعثروا على أفرشة البياض ، والفتاة الثلاثينية التي انتصبت بقامةٍ طويلةٍ ونحيلة وشعرٍ أصفر منسدل على كتفين

منحسرين أخرجت حزمة أوراق من حقيبة يدٍ جلدية صقيلةٍ مُعلقةٍ على كتفها الأيسر وراحت تمسح الوجوه الشاحبة وسط إشاعة نافذة لمطهر النفتالين يحتل فضاء الردهة المستطيلة وينام على الجدران السمائية أو يتدثر بالأغطية والشراشف التي تجاهد بالاحتفاظ بلونِها الثلجي .

الجريح الموحل البشرة ، المبتور الذراع وبوضع اتكاء على مسند سريره همس يطلعني :

- **يا لها من شاعرة ! كم استمتعنا بما قرأت . إنها أخماتوفا .**
- **أتقصد آنا أخماتوفا ؟! الشاعرة التي تقول :**

...

- **نعم ! هيَ ! هيَ ! ..**

عرفتها .. الشاعرة الغارقة في بحر اللوعة . فاقدة الزوج الذي أُعدِم والأبن السجين الذي ظلت تنتظره عشرين عاماً .. هي التي كانت تردد من على غيوم الكمد :

((انتظرُك ..
الانتظارُ قاسٍ !
أطفأتُ النور ، وفتحتُ الباب))
هي القائلة وسط هجير الوحشة :
((أمام الكثير من الشقاء تنحني الجبال
النهر الكبير يوقف مجراه
لكن مزاليج السجون صلبة
ووراءها هناك جحور الزنزانة
والعذاب الحاد للموت)) .

- **أنت تعرفُها إذاً ! .. قبل يومين من إحضارك كانت هنا .. قرأت أشعاراً استحالت بلسماً لجراحاتنا .**

رمقني بعينين فاحصتين . ثم بدهشةٍ شرع يسألني :

- **في أية جبهةٍ سقطت ؟.. لا تبدو سوفيتياً ؟!**

استفاقت جِراحي وتعرَّت .. كدتُ أقول له أني عراقي عندما دوّى في مسمعي الانفجار الدامي الذي ارتكبه قبل يومين انتحاري بليد أوهموه بجنَّةٍ عرضُها مهول وطولها لا يُحد فتسبب بمقتل متسوقي خضار وتناثر أجساد أطفال روضة صادف مرور السيارة التي تقلهم تلك اللحظة وتركتني أضم ثلاثين شظية في جسدي وأربع أصابع مبتورة من قدمي .

وبغفلة من سيطرتي صرخت جراحي المستفيقة :

- **في جبهةِ الذبح المقيت والسواطير الهمجية . في أرضٍ أهلُها لا يمتّون إليها .**

إجابتي جعلت أخماتوفا ترفع بصرها من فم الردهة حيث تنتصبُ إلى نهايتها ، مكان سريري . ترفع بصرها لتبعث مواساة وكمد ، ومن ثم ابتسامة هدفت منها تضئيل حدة الألم واستهجان لون الدم الذي يشترك في إهداره القتلة السفاحون في كل مكان وعلى مرِّ العصور .

حصد جاري الجريح الابتسامةَ ، لكنه غرق في رمال الإبهام .

هممتُ بمخاطبتها ، قائلاً :

- **يا آنا .. يا حاضنة الصمت الطويل ، الطويل ، وحاملة القلب الغارق في بحيرة الشعر . مَن أودع فيكِ غاباتِ الليل كي تكوني مبعثاً لعشقِنا المتباهي بما تقولين ، وكيف هو البوحُ في حلبةِ الصبر ؟**

هممتُ بترديد نصِّها (من كفّي يأكل) عندما سبقتني في النظر إلى حزمة الأوراق التي بيدها ، وراحت تردد وسط تقهقر الألم في ثنايا الجروح ، وانزياح الهم من دروب القلوب :

كم من الأحجار رُميت عليَّ !
كثيرة حدّ أنّي ما عُدتُ أخافها .
كثيرة حدّ أنّ حفرتي أصبحت بُرجا متينا،
شاهقاً بين أبراجٍ شاهقة.
أشكر الرماةَ البنّائين
عساهم جنَّبوني الهمومَ والأحزان
فمن هنا سوف أرى شروقَ الشمسِ قبل سواي .

2009/10/5

زكي ومها .. مطريّةُ التهجّسات

(1) زكي .. ومها .. والما.....

إنْ هي إلاّ اختلاجةُ نقاء ..
ما هو إلاّ نزرٌ من عَفافٍ نُقشا على ديباجة الألق ، والزمان عطرٌ يفضح فضاءَ انطلاقتهما ... تحاورا بتشابكات الأصابع عبر المديات . وتهامسا بعناق الأنفاس في غمرةِ الجذل .... قالت له : زكي ! أنتَ قصيدي الذي أكتب ؛ وحضورُك على شلالات أسطري كقوسِ قزح بليل .
فانتشى .. وابتهج !
مالَ .. وانثنى !
رمى رأسه على هفوِ صدرِها الفضائي ؛ وقال : مها ! لقد زرعتُك شعاراً للمطر على جدران يقظتي لأثبت للعيون السائحة أنّكِ تفّاحتي الغاوية بلا استئذان .. وأنا أحترق .
فارتعشت !
فتهاطلت !
فانشطرت !
فتشظّت !

مررّت كفّها على خزينِ شوقهِ ، وأطبقت على خرابِ قلبه تمارس الحنو / تستنطقُ بقايا الاحتراق .. انبعثت تفوه : زكي ! كنتُ أتساءل مَن يكون هذا الذي يخلق الشيطنةَ ويرميها في دروبِ رقدتي ؟!.. لمَن تلك المفردات المرميّة زهوراً مُخاتلة تتعثّر بها أقدامُ لحظتي ؟!.. مَن هذا الذي يعابثني بالمودّة ويكايدني بالوله ، ويقايضني بالثَمَل ؟! ثم يقول : "أحبُّكِ فمتى تقولين أحبُّكَ ؟! " ..
من خفقِ صدرِها رفعَ الرأسَ ..
بفمِ نظراته المائية قبّل جبهتَها وخدّيها .. خشي الفقدَ بعدما ومضت لحظةَ افتراقٍ مُختلِسة قطعت شريان الاتصال ، فهتف عبرَ أصقاعِ الفضاء البعيد ، والشاشة الفاضحة عُريَ روحيهما الطائرين : " لا تلومينني أيتها الحسّاسية المُفرطة في تهجّسي . أخشى من غدرِ الزمان ؛ وغدرِ الأحبة .. وغدر " المها " سنجر !
حلّقت مبتَهِجةً كفراشة !
تعالت ضحكةً كزنبقة !
بغوايةِ حوّاء ترجمت أشرعةَ بوحهِ .. بأنامِلٍ مُقامِرة جمعت نقودَ انخذاله . شعرت أنها تُهيمن ؛ وقلاعُ أمره استحالت بيدها صيداً . تيقّنت أنها باتت مرفأهُ الأسمى .. بوصلةً وحيدةً لإبحاره

المُرتجى .. أرادت أن تتمادى فتجرجره إلى شاطيء الفقد والترجرج المأسور بالضياع .. قالت : اكتبني غيمةً ؛ وارسمني نغمةً ، ثم قُلني صورةً . فهل تمتلك فمَ الحوار لتبلغ المُنى ؟.. إذا استطعت سأقول لكَ : أحبُّكَ .

غب لحظاتٍ من اللوعةِ واللظى أكملَ الحوار مُحقّقاً الشرط . لكنه لم يبلغ فمَ المنال... وسمعها تقول : انتظرني وسط البحر ؛ سأُضيء لك فناري كومضةٍ لابتهاج القلب وولادةِ الكلمة بقداسةٍ أبدية .

حين تطلّع إلى الساعة كانت العقاربُ تتثاءب ، والزمنُ يهرب بعيداً من محطّات انتصاف الليل . سألها : متى نلتقي ؟ فلم تجب سوى بـ " غداً بالتأكيد ! " .

تلك الليلة أطبقَ أجفانَه على وسادةِ الأحلام ؛ لكنَّ الغدَ فجّر قصةَ الغياب فانفرطت أصابعُهما .

صار الحوارُ هواءً ..

واللقاء ذكرى ..

والمسنجر أخرسَ .. أخرسَ .. أخرس .

(2) أنا حقير

في رحلةِ الكرى كان عليها أنْ تحلُم متوسدةً كتفَ بوحه المُستطاب ؛ مستنشقةً أنفاسَ ترجّيه أنْ لا تتركهُ لموجِ الهجر وبناتِ الأعماق يجرجرنه إلى يمِّ الغرقِ والضياع .

في رحلةِ الكرى كان عليها أن تقرأ ذبولَ جموحه ، وتترجم فحوى ندمِه .. ينحني ليركع عند قدميها متوسلاً : " أنا حقير ، فلا ترشقينني بالمودّة .. خائنٌ أنا ؛ أتكىءُ على أسلافٍ من المراءات ، وأقتني أعرافاً مستلّة من مسلاّة الخداع ." .

تشهده ينكمشُ كقنفذٍ قميء ؛ فتأخذه بكفٍّ حنوِّها وتضمّهُ إلى حضنِ دفئها .. تهدهدهُ : " أنا مَن يُطهركَ من رجسِكَ ، ويزيل عن مملكتِكَ أدرانَ الزيف ! .. تعالَ حبيباً لا ذليلاً ؛ كبيراً لا ضئيلاً .. فيردُّ بلسان دهشةٍ مُستطالة : " لا بدَّ أنكِ تحلمين ! .. كيف ترتضين ثعباناً يعترف بفعلِ سمٍّ يزرقهُ موتوراً في لدانةِ جسدك وتمزيقِ شرنقة تطلعكِ البهي ؟! ... أنتِ تحلمين ." .

تنتفضُ من غيهبِ عتمته : " آ.. آ ، نعم . أنا أحلم .....آ..آ.. ولكنْ دعني أجتر لحظات التحليق ! .. لا أريد أن أفقدك خائناً في اليقظةِ فأنتَ ! أنتَ الحبيب . من فيضِ عينيك التي رسا عند مرفئِها مركبي أولَّ مرةٍ عرفتُ نغمة التفتّح ؛ ومن غمّازتيك الراكزتين على جبهتي خديك أطلَّ وجهُ الحب نادهاً بي أنْ تعالي إلى حديقة العشّاق المُشتهاة . " .. " آه .. لا .. لا ؛ ولكنَّكِ ستمتعضين يوماً وتلومين روحَكِ المسكين . تعنّفين قلبَكِ الثلجي لأنّه مارسَ السذاجةَ واكتسى ببرقعِ الغَفَل ! .. عندما تكبرين ستبدّلين

قولي " أنا حقير " بقولِكِ " أنتَ حقير ". وستشتمينني بعينيكِ ، مرددّةً : " كنتَ حقيراً ؛ فكيف ارتضيتَ مودّةً سرابية ، وهمتُ تحت غواية عطرِكَ الفاغم ! " .

كانَ عليها أن تحلم برجلٍ يمدُّ لها كفّاً تستحيلُ غيمةً ألِقةً تحملها إلى جزرٍ سابحة بالبهاء ، وافقٍ ندي راعف بفيوضِ الازدهاء . أنْ تخطو بقدمِ الوثوق إلى ابتسامةٍ تخفي خلفَ أستارها سُهبَ النقاء لترفل على خمائله بجذلٍ ثاملٍ / رؤوم .

كانَ عليها أن تقف زاجرةً لتقول : كفى .. كفى !... غير أنَّها نهضت من على سرير شوقها ووسادةِ أحلامِها متّجهةً إلى خزانةِ ملابسها ؛ مرتديةً أجملَ الفساتين ، ومتعطّرةً أشذا عطر ،، ثم مقتنصةً نظرةً بارقة على المرآة .. وأتخيلها _ أنا الكاتب _ تخرج .

على حثيث تسارعِ الخطى تتقافز ؛ مجتازةً الدروب بتقاطعاتها وتداخلاتها ، ومتوقفةً على عتبةِ بابٍ ستطرقه وتنتظر ثمّةَ لحظات ... قليلاً وستواجَه بذئبٍ ذي عينين حمراوين وقوائمَ أربعة رشيقة . يبتسم لها بأنيابٍ بيض ناصعة ولسان يقطر لعاباً سيّالاً . وستخطو أمامه إلى غرفةٍ تعرفُ أثاثها ومحتوياتها تفصيلاً . وستقف عندَ سريرٍ تُصالِب على خميلته نظراتٍ جامحة ، وتهفو إلى وسادةٍ أهملت عدد المرّات التي غاص في ريشها رأسُها الجيّاش بالرؤى ، واعتاد قماشُها الحريري حوارَ فمها المليء بالتأوهات الكسيرة ، والشبق اللذيذ .

(3) الخنجر !!! ..آآآآآآآآ

ما كان بالإمكان تفادي النسمة لحظةَ تمايسها على رصيفِ الأحلام .. ما كان نفعاً القول : ينبغي .. وكانَ عليَّ .. ومن الضروري .. ولو أنَّ ؛ لأنَّ مرورَها أحدثَ صعقةً مدوّية ، فلا ندري إنْ كانَ السببُ الرعدة القادمة بعد ومضٍ من سماءٍ تلبّدت ذلك الضحى أم قهقهةَ ضحكتها التي تناسلت وانشطرت فأحدثت ذلك الزلزال المتفاقم في مسامعنا .

أحدنا صرخ : يتعثر الجمال .. لكَ الحق يا تفّاح !

وآخر تعالى صوتُه : الغرورُ آفةٌ .. فأينَ أمّي !

وآخر : قبلةٌ واحدة وأرحّبُ بالقبر !

وآخر بلسان الهمس : لحظةً معكِ كليلةِ زواج أولى !

أمّا أنا فالصمتُ ديدني . وحبْكُ شباكَ الهدوء المُراغي من تصرفاتي . ذلك الهدوءُ الذي سيقلبُ مضمارَ حياتها المعجون باللامبالاة إلى اختفاءٍ كلّي واعتكافٍ في بيتٍ صار لصحبي مُبهمُ الفحوى . إلاّ أنا صانعُ الكارثة ، ومحقّق تغيير الحال واستحداثُ المفاجأة التي بقيت لُغزاً لهم تغلّفه الأسرار . لأنَّ تلك الليلة المزروعة ببوحِهم وتعليقاتهم كان الهاتف يرنُّ عندها ويرتفع لتلتصق سمّاعته بالأذن ترسم لوحةَ الإصغاء لتترجم فحوى الكلمات في حديثٍ طويل .

كلمات من مثل : ورد / غابة / لوعة / سوق مزدحم / اكسسوارات / حذاء بكعب عالٍ يناهض الأرض / نصيحة مائية غامرة / مَسنجر / نانسي عجرم / شرطي يزجر عجوزاً يتجشأ / كلين ايستوود / جزر

القمر / هل رأيت مسلسل " حب وحرب " / عصابات الجنجويد / سيارة مفخخة تعشقُ الدمَ وتطايرَ الأعضاء / بسطال عسكري ينطق بالرفسِ والركلِ المنُظَّم / أنظمة تحتضر / أمّة تعتاش على عتمة الحضيض / قلب منكسر .. وأنا هائم بكِ .. مها : أجيبيني ؛ لقد قلت الكثير . لساني انطوى ، وعظام فكيَّ شرعت تئن .

ما كان بالإمكان رفع السماعة من أذني لولا القهقهة المتناسلة من قهقهةِ ذلك الضحى كانت من التفجّر ما جعلتني أسترجع الحروبَ الثلاثة بخطفةِ بصرٍ فانهالت تلك الصواريخ على أرض " ديزفول " وهدرَ ضجيجُ طائرات " التورندو " في بساتين " السماوة " قبل أن تبدأ حاويةُ القنابل بالتفجّر في لحظةِ عرسٍ دموي ، ودخل صريفُ المجنزرات للدبابات العملاقة في البصرة تمشّط بيوتاً تهالكت أعمارُها الطينيّة بفعل ثلاثين عاماً من الحروب القحبية الخاسرة .. هيّا انطقي .. لا أريد حواراً بالقهقهات .. أنتِ حربي الرابـ.. آآآآآ لا .. أنا أحتضر عند تخيّل حربٍ رابعة تمزّق لي بقايا المُنى ؛ وشبابي صرفته على كتابةِ تمزّقات الأجساد وزقورات الدخان المطعَّم بالشواء الآدمي .. كنتُ ، يا مها أنا والموت نتجوَّل في الأرض المحروقة ، والسماءِ المحايدة ، والأفقِ الضائع .

لا أدري كم استمرَ جنونُ الصمت . ولماذا ماتَ الصوتُ وجفلت القهقهةُ . غير أنّي لا أنكر سماعَ تضارب أنفاس ، وتلاحق شهقات ؛؛ ثم تسلل صوتٌ خذيل كما الأنين :

_ آآآآآآآآ ..زكي !.. أنتَ تطعنُني في الصميم !

_ كيف ؟!

_ أعدتَ لي ذكرى أبي الذي فرّطته الشظايا ولم تصلنا منه سوى مُفردات كان يتنبأ لحظةَ كتابتِها بالتجنّي الذي يصنعه السفّاحون .. كنتَ معه ! .. أرأيته ؟

تهشمّت فخاخُ الهتك ، وانكفأت مصائدُ اللامبالاة .. كلماتُ الزيف التي جهّزتها ووظّفتها للخديعة ؛؛ الأساطير التي حبكتها ونظّمتُ لها الشِّعرَ الكاذب والقصَّ المحبوك ، جميعاً تمرغت بوحلِ هزيمتي عندما عاد صوتُها طفولياً يبثُّ براءةً ، وألماً ، وجوىً ؛ ثم رغبةً في اعترافٍ انبثق من بين ثنايا الشعور بالانتماء ، قائلةً :

_ زكي .. زكي ، أنتَ أبي

هون

حزيران 2004

سحر المَسنجر

قـلائد

(1) قلادة كونية

التسلق لديه كانَ من عِداد المخاطرة واعتلاء دركات المجهول ، بينما رأت فيه حرقاً للمضارب وامتثالاً لنداء القلب . وكان المَسنجر عالماً تفجّر أمامهما ليكون درباً للوصال . قال لهما : أنـي فضاءٌ أضجُّ ببواعث اللقاءات الأثيرة ؛ وأفتح مفازات الدُّنى درباً للحالمين . فوجدا في الهدفِ المنشود إمساكاً بمقبض باب الفردوس ؛ وراما من انطلاقتهما الخيالية المحفوفة بالأسرار والنوايا الجميلة نشداناً لِّلقاء .. لقاءٌ انتصبت إزاءه الحدودُ كحافات موسى ؛ وكمنت خلفه متاريس حشود من الهواجس . ومع ذلك تجاوزاها بعاطفتهما الخرافية وودّهما المائي الرائق .

على مستطيل المَسنجر المتحفز كتب وقد تسلح باليقين : " إن لم أكن قريباً منكِ فلن أكون بعيداً عنكِ . والبحر الذي يضاهيكِ بالصفاء لابدَّ ملهمُك بالنقاء ."

وأيضاً ، ايضاً كتبَ : " في انطلاقتِنا البوهيمية المرجوّة ليس للهواجسِ بعدُ أن تنبثقَ شاهرةً لافتةً القلق . وليس لنا سوى أن نركبَ سحابات الانطلاق صوبَ خمائلِ الجذل ؛ فأنا القبيحُ وأنتِ الوردة . " .

كركرت ضاحكةً وهي تعدو في دروبٍ شوقها إليه ، والماسنجر ينقلُ بصماتِ أصابعها كلماتٍ كاللآلىء .. كركرت لهذا البوح الذي يقطر شهداً ويترك أشذاء القهقهة تلعلع مستبيحةً فضاءات هنائها .

كادت أن تكتب إليه : " ما تقوله يُحسَب من باب الشعر ؛ وأنا العائمة في هدير الكلمات أهيمُ بالشعراء . " لولا أن خمَّنت في قولها ارتقاءً للخيال ، وصعوداً باتجاه محفّاتِ الرومانس . الرومانس الذي ما عامَ في بحرِ وروده أحدٌ إلاّ وخرجَ ممسكاً بألواحِ العته والجنون ... فكتبت : " الحدودُ معضلةٌ ؛ وتبادلُ

النظرات يجدها المتلصصّون المختلسون من عِداد رسم الخطايا التي بعرفِهم جرائمَ . فكيف لنا أن نجازفَ باقتفاء مفارقَ البوهيميا ؛ ونصارع غيلانَ الأصفادِ التي تكبِّل خطوَ جذلنا ؟! .. كيف لنا أن نُقسِّم أرجوزةَ الضحكات انغاماً على تموجات أيامنا القادمة ؛ وغمامات الغيب المجهول تتكاثفُ ثقيلةً على مدارج حبنا البريء ؟ " .

عزفت أصابعُ قلبِه ردّاً ؛ وانطلقت ذبذباتُ المَسنجر تدوِّن على شاشة نظراتها : " جوهرتي الثمينة ! .. يا قلادتي الكونية . شمسُ الهناء القادمة ستزيحُ نهاراتِ القتامة المرسومة منذ عقود ؛ والليلُ المليءُ كدراً ستنتهي غيومُه بقدوم القمر الآتي ، وحضور انسفاحات النجوم أراها تتحرك صوبَنا بزحوفٍ يقيني ضوئي تعمّه الأنوار الفضية والبهاءات النقية . سيستحيلُ كلُّ شيء لصالحنا ؛ وسيغدو اليوم بنهاره ، وغلَسه ، وسَحَره سيمفونيةً لانشراحاتنا ، يعزف بانوراما الهناء البشري . " .

جعلت ظهرها يأخذ اتكاءَ الارتياح على مسند الكرسي ، مطالعةً مستطيل المِسنجر ، ساحبةً انفاساً ملأت بها فناء الصدر المنقبض قبل قليل بينما راحت تُحفّز مجسّات الخيال . فرأته منشرحاً ، مبتهجاً ، طائراً .. قليلاً وقالت لأناملِها اكتبي : " حقّاً ؛ أيها المقتحم عالمي بروائه . عالمُ الغد أجملُ لنا ؛ وفضاءاتُ الأرائج البنفسجية أتلمَّسُها صافيةً تخلو من أعاصير الألم . المروج أترجمها تينع بالندى المنهمر على امتداداتها . أرى فيها نسائم مستقبلي عذبةً ؛ فأقول فيكَ كلمتي وأنا أفردُ الذراعين .. هلمَّ إليَ .. هكذا ..

وكان هو قد أفرد ذراعيه ، وأغمض العينين كما لو أنه يستجيب للنداء الغيبي . وراح يضمها احتضاناً ؛ والمَسنجر يعلن انتصارَه على أحكام القيود ..

ويهتف بتكسّرات العوائق ..

ويحصد الندى .

(2) قلادة من بهاء

حين دنت بأناملِها من نوابض الحِروف مسّتها ارتعاشةٌ ، اكتسحت شبكةَ سيطرتِها على الأعضاء . وراودها شعورُ أنها ترتكبُ خطأ التأخرِ عليه ؛ فهو ينتظر ؛ ينتظر . والمَسنجر يشكل ضوءَ وجوده في محطة اللقاء المنتظَر .

أرادت أن تتراجع فتطفىء وهج الشاشة ؛ وتذيب هديرَ الذاكرة في رماد الصمت ؛ غير أنَّ صفوها الخرافي لقراءةِ شوقِ قلبه وحصادِ احتراق رياضه ، اضافةً لثقل الزمنِ عليه هو ما دفعها إلى إصدارِ أمرها للأنامل لتأخذ دورَ الدخول على عالمه برموزٍ لا تعدو كونَها مفكّات لمغاليق الجِّنان .

تواريت إزاء عينيه انبثاقاتُ الضياء . وجاءه عبر المستطيل السحري قولٌ يتموسق : " صباح البهاءات الدائمة . " . فهتف بكلِّ أصواتِ الجذلِ المختزنة في مساربِ روحه : " ياه ! ما أثمنَكِ أيتها

القلادة الكونية .. يا ألقاً سكبت ثناياه العسل .. من ساعةٍ أنا أنتظر ، بوحَ الطوايا بالقُبَل .. ما ضرّكِ لو جاءت أمطارُكِ قبلَ وقتٍ .. لقد أضرمتِ في الدواخل الجمرَ الخامد ؛ وأشعلتِ أكداسَ الهشيم الذاوي .

أبدت التحسّر ..

وأعلنت الألم ..

وجاهرت بالاحتراق ..

أرادت أن تُفضي بما صرفته على وسادةِ الأمس ؛ ساعات الليل الهائج ، فتقول بما يشبه اليأس القاتل : " أنا أقودُكَ إلى جادَّة الأمل السرابي ؛ وأنتَ تجرُّني إلى تخوم اللا جدوى ، " .

فَضَّلت التوقّف .. وآثرت التأني .. وأحسنت التراجع .، وارتأت الكتابة :

" أرى فيكَ إصراري على تجاوز الأعاصير ؛ وأحملك تميمةً لتبديدِ جفافِ الأيام . ما مرَّ يومٌ إلا وأنا فيكَ وبكَ غارقةٌ . أحسبه تقويمَ هناءٍ خضَّلته الأماني برعاف الجذل . ما تقلَّبت الساعات على رياض الرجاء إلا وأنتجت جيوشَ أنسامٍ تداهم يباب القلب فتزرعه بالزغاريد ، وأصداءِ القُبل ... أيها الغارق في حشد الفراشات : سأضيفُ إليكَ ياءً لتكونَ زيدي ، واخفاقةَ روحي المختلج . ظلّي في حوارات الأنا الراكضة صوب معاقلِ الامتلاك . سأستحوذُ عليكَ ؛ ولتبكي أمهاتُ امتلاكِكَ العصية . لم تعد بعد اليوم من مقتنياتِ خزائنهنَّ يتداولنكَ بالبصر والنظرات الولهى ، فقد صرتَ من جنائن ولهي . وصارت ربوعي فضاءَكَ المنفتح على السرور . " .

سحبَ نظراته اللصيقةَ على مستطيل المَسنجر .. سحبها من دفق الكلمات ، وانهيال الروح المتناثر لوعةً .

فزِعاً .. قلِقاً .. متحرّجاً خافَ عليها . فكتب :

" أوقفي انسفاحَ قلبكِ ، وانسكابَ روحِك ؛ واثبتي .. لا أبغيكِ ناراً بهذا الاضطرام النيزكي ؛ لا ؛ ولا ثلجاً يتباهى ببرودةِ التعبير . فالاثنان من نافلةِ سحقِ الأماني . وأنتِ الوردة وأنا القبيح . كيفَ سمحتِ لأناملكِ الشمعية أنْ ترسم تباشيرَ ذوائكِ ؛ ومنطلقات ابتداء مهمّة الضياع ؟! .. كيف ارتضيتِ للأعوام التي أريدها معبداً لصلواتنا الأبدية أن تتهشَّم بمعول لوعتكِ ، وفأس احتراقاتكِ ؟! .

وكانَ عليها أن ترد لتعطي المبررات ، وصولاً للإقناع . وكانت على وشك أن ترد : " أنا أموت لأجلكِ سعياً لـ..... " لولا أن كتبَ يقول : " كفى .. كفى .. يا قلادة البهاء " .

تفتتت بالانكماش ..

وصرَّحت بالتأسي ..

وفاهت بالتهالك !

باكيةً طأطأتِ الرأسَ على أزرارِ الكيبورد الذي راح يبرقُ حروفاً لا تُنتج كلمات :" ذ ، خ ح م ت ب ا ىء س ش ت صة ثقم ص ث م ضم سم ث ثو ي ين " . وكان هو يرى فيسقطُ في حومةِ القلق على انهيال الأحرف التي استحالت أمام عينيه سهاماً تهاجمه . فراح يكتب لواعجَ الأسئلةِ المُخضَّبة بالحيرةِ والخوف على ما سيحدث لها ؛ لاعناً المسافات التي لا تجعله قريباً منها اللحظة ، وباصقاً على الزمن البعيد الذي يخلّفهما في منأىً قاتلٍ ، مرير .

(3) قلادة موسيقى

كانت على وشكِ أن تبتني لها قدراً من الضمانة في الوصول إليه عندما وقفت إشارةُ الربطِ برزخاً بين انهمارِ لهفتها لمحادثته وحشودِ شوقه لملاقاتها على مجرات الهواء .

وكان (هو) يدوّن عبارات الإخبار بأنه على الخط يبغي سكبِ ما جمعته بوتقة شوقه إليها ، ولم يدر أنها في الاقيانوسات البعيدة تحرق أصابعَ قلبها على نارِ خشيتها عليه من أنْ يداهمه ظنُّ أنها غير مكترثة للقائه الأثيري .

تخيَّلت العبارات تأتيها بانهيالٍ من شغفِ اللحظات ينقلها المستطيلُ السحري الذي توقَّفَ فجأة ليوقِف شلالات بوحهما .

غمرته مرارةُ الانقطاع ؛ وتدفقت إلى مسارب رأسه بواعثُ رؤىً رمادية . كان يريد أن يتحدث بغزارةِ العاطفة الجياشة بالودِّ . يريد أنْ يقول : لقد قضيت ساعاتِ البارحة على نغمات صوتِك الذي نقلته إليَّ أمواج الأثير أغنية كونيةً تُطرب لها عصافيرُ الدنى ؛ وتهيمُ لنبراتها حمائمُ البساتين المحتفية بالظلال . عشتُ بالأمس يا قلادتي الكونية الكرنفال الألوهي برقصٍ تؤدّيه الملائكةُ ويحتفي به الله ؛ وأنتِ في فيوض الألق تسبحين وتنعمين ؛ فتبتهجين ، فتنثنين انشراحاً بفستانٍ فصَّلته ملائكةُ الجنان وأغدق عليه الله كلَّ بركاتِ الجمال ، لتكونين ملكةَ العرش الأزلي بلا اعتراض ." .. لكنَّ المستطيلَ السحري ظل جامداً ؛ لا يبعث على الأمل الذي ينتظره بأعصابٍ تحترق ، وانامل شرعت بواكيرُ الارتعاشِ تسرِّب حركتها الكهربية في تمفصلاتها وتصلباتها فتجعل مَن يرى يُقر اعتقاداً أنَّ الماثلَ جلوساً أمامَ الشاشة الملوَّنة في قمةِ جبال القلق ؛ وأنه لو بقي لحظاتٍ أخرى سيُنتج الموقف سقوطاً لرجلٍ من كرسي كان يغوص في حضنه الدفيىء قبل هنيهات وينعم بلغةِ حوار تطفو في سمائِها سحابات الجذل والحبور .

وهنالك ..

هنالك .. من غرفتِها ؛ محتوى خلجاتِها وانفعالاتها وأسرارها البهية استمرَّت هي تحرق بيارقَ سعادتها بلقائه الفضائي وتنثرها هشيماً في موجةِ رياحِ الخذلان التي ما تخيَّلت انبثاقَها في هكذا لحظةٍ كانت جنَّدت لها كل مفردات لغتها العاطفية . كانت تسعى إلى بوحٍ من عداد القول بأنها حقاً تحبه وإن لم تقل ذلك ؛ وأنها فعلاً تود معه العيش وإن أظهرت تحاشياً من قبل . كانت تريد أن ترسمَ موسيقى للقائهما الذي وإنْ بدا بعيداً فأنها تراه آتٍ لا محال ؛ وتقول صورةً تحفر في فضائها مفرداتِ نهلهما الروحي الغزير ؛ مالئةً الفراغات بتأثيثات أمانيهما الخضراء .

نهض من مكان جلوسه ليفجِّر دفقَ ماءٍ يُدلقه في الفمِ الذي غزاه يباسُ الموقف وعمّه جفافُ الحال . توجَّه للبرّاد ؛ وبالكاد استطاعت انامله السيطرة على نابض دفع الماء ؛ وبالكاد أيضاً رفع القدح الذي امتلأ إلى نصفه باتجاه فمه . وبقوةٍ خارقة وهبتها له كفُّه المرتعشة استطاع أنْ يحقق نصرَ ارتشافٍ ما يُرطِّب جوف الفم ويتسلل لمجرى بلعومه المتحشرج .

أما هي فاستحال فضاءُ غرفتها كينونةً لاستدعاء الأحزان ، والقلق الموجع . تفكر بوضعها الذي غدا مربكاً ، ومتطيراً ، وحسيراً ينضب من بقايا الأمل في محادثته مثلما تفكر به : كيف سيغدو إزاء هذا الموقف المنتصب بكل جبروتٍ ؛ هو الذي لا يعيش دون التغذي من كلماتها المائية العذبة ، وفاكهة بوحها الشهي ؛ ولا ينام رقوداً هنيّاً إلا بنغمات تأتي عبر البهاءات الاثيرية لتهمس بأذنه : نم مطمئناً ، ولا تدع خفافيش الكوابيس تدنو من نومك الطيفي الهانىء ... وتتألم ؛ تتألم .

وتروح ناهضة تتعثَّر خطواتها بوسادة خضراء سقطت من سرير نومها على بساط غرفتها التي يسودها الأخضر بطبيعته الهادئة والأبيض بنقائه المعهود ؛ وتصطدم بمنضدة كانت قبل قليل تضمّها بحنان . ويجابهها الباب مغلقاً حتى ليغدو عصيًّا عليها فتحه لتندفع هاربة إلى شرفة شقتها التي تطل على البحر تتوسل بنسمة تأتيها لتطرد بواعث اختناق شرع بهمجيةِ مَن ينتهز الفرصة للانقضاض ، ولتنهل من زرقةِ البحر ما يعينها على مواجهة الموقف . وكان الكرسي الذي شغلَ حيزاً من الشُّرفة قد دعاها للارتياح فليس لها اللحظة إلا أن تتخذ منه منقذاً ؛ وليس له إلا الانغمار في موارِ الشارع الضاج بالعابرين .

ترك مقهى الحديث الالكتروني واندفع إلى فضاء الشارع . يرسم الخطى ، ويضيع في برّية الأفكار الهائلة . إندفع مسترحماً موجةَ راحةِ بالٍ تأتيه تائهة من بحر الضباب الذي عليه إن يخوض يومًا كاملاً في عُبابه وصولاً إلى مرفأ محادثتِها ، المخلّص ، المنقذ ، الرحيم .

السماوة

نيسان2005

---

* نشرت في ملحق (أدب وثقافة) الصباح العدد 848 31/ 5 /2009

سحر المَسنجر

يناكِدُ الريحانَ فيرديه جميلاً .. الربيع

(ساعةً كنت أتأرجح بين تدوين القصة ومشاهدة صورِكِ بالتتابع .. السهر للقراءة عادةٌ لازمتني منذ أعوام طويلة مع أني استيقظ فجراً لقراءة ما لم أتمكن من قراءته من صحف الأمس . وفي القيلولة أنام طويلاً وخصوصاً في الاصياف حيث جهنم تفتح أبوابها على العراق وتقول للعراقيين اشتعلوا أيها الملاعين الذين تنافسون الله على بطشه .)

(1) ريحانُ ربيعي

البهجةُ التي توالدت من بين ثنايا الربيع هي التي أزالتْ مِنْ أمامِ ناظريه مُسوحَ القلقِ . والقلبُ الذي اكتوى لأيامٍ بنيرانِ هَجرِها نامَ تلكَ الليلةَ رَخيّاً ، عَفيَاً ، رائقاً .. قالتْ لهُ عَبرَ مَساراتِ التيه التي توالدت في مَساربِ روحِهِ الرهِص : أنا لكَ ؛ فلا تبتئس . والهاتفُ الذي شكّلَ من نفسهِ عرّاباً أرّخَ ولادةً جديدة لحبٍّ ستدوّنه مخالبُ الأيام بخطوطٍ من دمٍ راعف وشرايين لا تعرف وقفَ النزيف . قال لها : يا ربيعي الذي لا أجني منه سوى ريحان سَحَري ، لا تُلقِ بظلّكَ الحنونِ على متكآت خدري . فأنا إنسانٌ جبلته الأيامُ على اغترافِ الكَدر ، وحتّمته الظروف مرفأً لسفنِ الضياع ؛ رُغم أنني أحبُكِ ، والأيام التي قطعتِها نائيةً عنّي حطَّمت دفاعاتِ جَلَدي .

عمّها الارتباك ؛ والهاتفُ نقلَ أنفاساً مخَّضتها المفاجأة ..

كادت تقول : أيها الزائدُ مِن ورودِ رياضي ، كيف اختصرتَ المسافات لتباغتني بالذي من عِداد الهواء ؟ .. كيف ولجتَ من أبوابِ التيه التي ما ظننتُها ستُفتحُ بأصابعَ شوقِكَ الرهيف . أنا ما ناغيتُ جناحَ قلبي الشرقي ، فكيف أتى شوقُك يُعلن عشقَ جناحِهِ الغربي ؟!.. من أين لنا كلُّ هذا الأملِ الفيضي حتى نُعلن شروعَ الانتصار بأكفٍّ ستلتقي وأصابعَ ستشتبك ؟ الأيام التي أرهقتكَ هي نفسها التي سحقتني ... آآآآآه ! المسافات ! المسا ... فات .

كان المساءُ فات .. والحزنُ نشرَ أشرعةَ سطوته على القلبين المحلّقين في هُلام النأي .

خُيِّلَ إليه أنَّها ستقطعُ الاتصالَ لتتناولَ وجبةً من الإجهاش ، وكؤوساً من الدمعِ الدفيق .

شُبِّهَ له أنها ستخلِّف لديه حفنةً من السكاكين يُقطِّع بها بقايا صبرِهِ الناضبِ الشحيح ويرميه نثاراً ، فصرخَ بحنجرةٍ خرساء لم ينفلت هتافُها سوى بحشرجةٍ تقول : لا .. لا .. انتظري . أرجوكِ !

(عادت إليه رجاءات أمّه لحظة أبصرها_ ولمّا يزل صبياً _ تتهالك عند أقدام أبيه أن لا يهجرها ويغادر إلى مرافئ المجهول بناء على غوايةِ كنوزٍ من غماماتٍ سرابيةٍ خديعة . مرافئ أفردت ذراعيها لبلاهته ، ونادته هلمَّ أيها المعتوه المخضب بسخام الخيبة .. هائجاً ، مائجاً اندفعَ ! لا يأبه لتهالكات التحذير من جموع الانقياء المعاتبين .. فسقطت تلك الأم الحنون على صخرةِ الانتظار والترجي .. وماتت تعيسةً ، بئيسةً ، حائرة .)

لا .. لا ! ربيـ ..

لا يدري كيف تعثَّر صوتُها وانكفأ ! وكيف تمالكَتْ حزنَها المتراغي فتجلَّدت .

سمِعها تقولُ بلسانٍ شعرٍ عزفته ذاكرتُها الجريحة : يا زائداً نسيَ الزمانُ أريجَهُ .. الهاتفُ سليلُ الخداع فلا تأتمنه . سأكتبُ لكَ هذه الليلة . لا تنم قبل أن تقرأ رسالتي ، وتكتب لي .

في صوتها ترجمَ عزيفَ لحنه المُرتجى ؛ ومن رجائها حصدَ ورودَ وفاءٍ ستُدبِجُهُ الليالي بطراوة أغلاسٍ رطيبة عذباء ..

أيقنَ أنها تخطو في دروب رجاءاته التي تمنّى ، وأحلامِهِ التي رام ... وحين أُسدلت ستارةَ دراما الهاتف ، استدار ؛ وقد عَلت في سماءِ تطلُّعاتهِ أغنيةٌ لها لونُ قَمرٍ لهيف ، وجوقةُ حمائِمَ ارتدتْ فساتينَ النجوم .

في الطريقِ إلى بيته الذي يقع على رابيةٍ خضراء أبصرَ قلبَه فتىً يعدو فيدخل مهرجانَ مفرداتٍ تتهاطل من عيني ربيع راعفٍ قادم ، فانتشى بشذا ريحانٍ فائحٍ عابق ... وهام !!!

2005 / 4/ 9

(2) الزائد في حقل الربيع

جمعتهما ساعةُ نشوةٍ ، وفرّقهما اضطرارُ حال .. هي الربيع الرافل في جذلِ المتعةِ ، الناهل من عسلِ الفصول . وهو الزائد من لذاذات الدُّنى ، الفاقد ليالي المسرّات .

جمعهما شوقُ الكلمة ، وفرّقهما حسابُ المسافات . هو القائل : " لا بد من أنْ نُحيكَ خيطَ الوصل لنحقق نجازة المستحيل " . وهي القائلة : " تبقى الأماني مجردَ أمانٍ لا غير " ؛ معتمدةً على واقع مثيل ، وصباحات كما المساءات تروح وتأتي بمتوالية روتينية تحتمها جدلية الحياة المستكينة التي وجدت نفسها تدور في فلك العدم واللاجدوى .

يعتمدان في لقائهما على حنان الهواء الناقل لهفاتهما عبر أثير مطلقٍ محايدٍ ، بليد .

في اتصالها معه تراه على كفِّ اللحظة يخطو ليقف عند رموش أجفانها . يمدُّ لها كفّاً تعانق كفّها ؛ ويروحان في رحيل رومانسي يخطوان بين أزقة مدينتها ودروبها . تقول له : هنا رأت حورية البحر أول حائطٍ ؛ وتلمَّست آخر باب . ومن هنا تجوَّلت نظراتها باتجاه السوق حيث رائحة " الكزبر " و" الريحان " و " المعدنوس " و " النعناع " ، والقلب الشغوف للنظر والتفحص والاغتراف . وهنا كانت تلمح أباها يلج الجامع ليدعو للعائلة جميعاً بعيش رغيد أبدي ، وفراديس من جنة الله الوسيعة . ومن هنا كانت وقريناتها يتخذنَ الدرب نزولا إلى الرمال الرخية ليرشقنَ البحر بلهفاتهنَّ تارة وخشيتهنَّ من جموحه تارات . وهناك ؛ في ظل شجرة الكالبتوس الوفير كانت تتكىء على الجذع الكبير وتروح تغمض عينيها سارحة في حُلمٍ يقظةٍ ترى فيها الفتى القادم من أقصى فيوض الشرق يمد لها كفيه ويرفعها ليسرقها قرصاناً عاشقاً يبني لها بيتاً من مَحارةِ الحبِّ الخالد ، وظلالاً من لهفاته الثقيلة .

وفي اتصاله بها يراها عصفورةً بجناحين من بهاء ألِق يمدُّ لها كفّاً فتحط بشوقٍ لهيف على راحته ؛ ويأخذها بين دروب السماوة وأزقتها . يقول لها : هنا أبصر السندباد بدء الرحلات عبر الصحارى والوديان وصولاً إلى البحر وعبوراً الى المحيطات . هنا كان فضول عينيه المتفاقم يشهد أرتال البدو بجمالهم يخترقون سوق المدينة الكبير محمّلين بما تسوَّقوا من سكرٍ ، وبن ، ودقيق ، ورز ، وتبغ ، وحبالٍ ، وقِرب ، ووجوه ممصوصة سرقَ جذوتها لفحُ الشمسِ وصهدُ الظهاري السخينة تاركاً شواربَ يابسة منتوفة ولحى تجاهد للبقاء في أقعار الوجوه . من هنا كان وأقرانه يتخذون الأزقةَ الأمعائية المتداخلة وصولاً إلى الفرات يقذفون بأجسادهم المُقحمة بالحرارة والنزق والشقاوة ، فتتعالى صيحاتُهم الجذلى وصرخاتُهم الصبيانية المثيرة . وهناك وهو يرمي بجسده المتعب عند جرف النهر يغمض عينيه ، ويروح في رحيل يقظوي يبصر على أديمه حورية البحر تخرج إليه من بين مويجات بحر بعيد . تسلتقي إلى جانبه ؛ تلامسه وتترك أنفاسَها تعانق أنفاسه وتتداخل معها . ويذهبان ، مسافرين في مدٍّ عذيبٍ من لذاذةٍ متراغيةٍ ، طاغية ... يقول موشوشاً في فضاء رقدتها : عندما أصحو من غفوتي سأكتبُكِ قصةً .

وتقول هامسةً في مسمعِ انتشائه : عندما أفترق عنك سأرسمكَ ذكرى .

يقول : لا أصدِّق !

فتقول : أنت تكذب !

ويضحكان .. وينهضان !

وحين يكون الحلمُ قد انتهى تظلُّ النشوةُ عالقةً في الخيط المُعلّق بين قلبيهما ؛ والوعد باللقاء القادم يتشكَّل عهداً للتواصل .

ويكون هو ينتظر بشغف مقدم اللقاء .

وتكون هي تتلظى على وهج اللحظات ..
عيونهما تلاحق العقارب النملية المعلقة على جدار الانتظار ، تتحرك بدبيب ساحقٍ ، سادٍ .
عقارب تعلن انتشاءها على حساب لوعة القلبين المحترقين .. تغرز سمها الزمني الوئيد في الصميم .. ولا تأبه !

2005/ 5/5

(3) إنَّ الربيعَ ريحانُ

تراغت كغيمةٍ ترتدي ثوبَ البهاء ؛ وانثنت كما نسمةٍ يعارضها شاخص لئيم .. أخافُ عليكَ ومنك قالها الربيع للريحان ، فاستدعى الشمس إلى أن تنده بضحاها وتترك اللهب فلا تومئ له وهو منشغلٌ بحَبكِ رمي الجمرات على اليوافيخ الفائرة لأنَّ الريحان عالمٌ تغزوه الرهافة . إذ ينثني يعلن الذواء ويزعل على حبيبه الربيع .. هل الربيع ابن الريحان أم الريحان قلبٌ يحبو فيأتلق ويتهادى وسط كرنفال النسمات حفيدات الربيع وبناته ؟؟ ..

تراغت كضحكةٍ تنفلت من مُحيّا ملآنٌ بالجذل ..

تسامت مثل فاختةٍ حادها الحنين للُعلا .

(هي) ما قالت خذني إليك هذه المرّة لأشبع القلب بشهدِ حلاوتك ؛ ولا تجاوزت عُرفَ شوقِهِ لنيلِ رضاه . كانت أكثرَ جَلدَاً من إرهاص شوقه ؛ وأدنى خلخلةً من تخومِ ارباكه ؛ وأقلَّ خشيةً من أنْ تفقده .

(هو) ضائعُ ، يهيمُ في سهوبِ الظنون ، جائباً مفازات الدنى ؛ ظانّاً أن مَن يُبعده النظرُ قد ينساهُ القلبُ . ومن يجفوه الربيعُ قد يذبلُ فوحُ ريحانه ؛ أو قد يزعل الريحان من غنج الربيع فيذوي القوامُ انهصاراً .

بكل رجائها ظلَّت تهتف به عبر المديات : أنا لكَ، فلماذا التطير من المسافات ؟ .. أنا منك فما هذه الهوة التي تصنعها من العدم ؟ .. ارشقني بوردةٍ بدل أن تشتمني بالفراق ؛ فأنا مخلوقةٌ من دقائق السَّحَر ، ومعجونةٌ من رهائفِ أنسام الفجر . إذا شئت لحبّنا روض الإدامة فلا تبتعد عن الرومانس لأنَّ لكَ على خمائل جنانه مخلوقةً شربت كأس الندى دهاقاً ؛ وأترعت من أرائج وروده اغترافا ...

لا .. لا !

انكفأ يدمدم : أنتِ تحلمين ! من أينَ لكِ (أنتِ) قدرة التحمّل لتختصري الشوق العميم بيسير الكلمات ؟ من أين لي (أنا) جيش الصبر لأصدَّ هوَجَ التهجسات ؟ من أين لنا (نحن) طاقية الإخفاء لنجتاز الفراسخ بومضةٍ ، ونلتقي ؟ .. متى نلتقي ؟!

ويأتيه صوتها الأثيري بهيئة قهقهات منغمة : أوه .. أنتَ منفعلٌ الآن . كم أنتَ ودود وطيب حين تغيب انفعالاتك ؟ ألم تقل لي أن ودادنا أقرب من أن تبعده البرازخ وتطيح به عواصف الأيام ؟ ألم أقل لكَ أن حبّنا أصمد من أن ترديه المفاجئات وتهشمه الخطوب ؟ فلماذا التطيّر من قدرٍ لم يأتِ ، والخشية من فراقٍ لم يحن ؟

أنتَ وأنا أقوى من جبروت القدر .

أنا وأنت أعتى من حيان الفراق .

ادلقْ في قارورة نفسِكَ اكسير القناعة بأنَّ الربيعَ لا يغدر ، وأنّ الريحان ليس من صفاته الجَّفاء .

حسناً ! قال ؛ وهو يدري أن حسناءه تبيع قوارير التهدئة غير المهدِّئة حقّاً . وأن الذي قال لها حبيبتي أكثر من كرّةٍ تقيس حبّه بقدر انهمار انفعاله ، فتخرج بنتيجة أنّه ما زال يحترق ؛ وأنَّ اللظى في قلبه يستعر أواره . ولديه جبالٌ من النار كي تهمد لتقيس شساعة لقائها الحقيقي به .

أغلق هاتف التشظّي ، وانسحب عن أثير الذوبان ..

خرج إلى انفتاح الشوارع تاركاً الذين انتظروا انتهائه من مكالمته يتهيئون للدخول في حومة الأثير لأحبَّاء لهم تسحقهم المسافات ويطحن أمانيهم ثقل الليالي الجلمودية .. خرج وفي داخله تنشطر ذرّات السؤال : هل حقّاً سنلتقي ؟! ..

لا يدري من أي الجهات سمع وشوشةً أو همسةً أو توالي حسرات .

الذي يدريه أنّه أبصرَ درباً فرعياً ينعطف من الشارع العريض فآثر ولوجه ..

وهناك !

هناك فقط ، وجد نفسه يسبح في عتمة دكينة يشوبها السكون . وفي الأعلى شاهد نجوماً تتراقص لهاثاً .

أراد أن يطير ليرمي بنفسه في كرنفال توهّجها ، فتعثَّر انكفاءً ، وتصمغ التصاقاً ..

وصارَ يبكي !!!

(4) ربيعُ ريحاني

لا تنجلي غمامةُ الرؤيا بغيرِ طيفِها التليد .. وقداسةُ الوجود لاتنكفىء من دونِ فيضِه البهي . هو هالةٌ تنثُّ انبعاثات الإغواء ؛ أمّا هي فشوقٌ يحصد رجاءات التحققات .

لم تبتئس لنواميس الانسحاق طالما أنَّ ثمّة معراجاً للوصول إليه . لم تتوارَ . وكان المساءُ منفذاً لها كي تعيش التفاصيل مع حواراته المستلة من دروب الأمل .. في كلماته التي وصلتها مؤخراً تجد عزاءً لروحها الصاهل على ثرى الحياة الجموح ؛ وفي طرحهِ ترجمت انفتاحاً على مستقبلِ فضّيٍ بريق . من هنا كانت تهتفُ بأيامها : توقفي أيتها الصباحات لأنهل من ربيعِ ريحانه الشهي ؛ وأنتَ أيها الضحى

تأنَّى وامشِ الهوينا ، فأنا لم أصافح كل رجاءاته ، ولم أتعقَّب جُلَّ أعطافه ، لا ، ولا شبعتُ منه ، فكيف يشبعُ مني ؟ .. أريدك أن تنقلَ لحبيبٍ زاره الهواءُ فخطفه ؛ وعمّه النسيمُ فأغواه ، وشفَّه الوجدُ فأرداهُ جميلاً . انقل له تواليات لهَفي عليه ، ومحنتي من ضياعه .. قل له أيها الضحى المستنير بروح الله ؛ بحقِّ شمسِكَ المغناج ووجهِكَ الدفيء أنني أنتظره عند تخومِ الهاتف ، وسحر الفضائيات ، ومحطات المَسنجر علَّ نَفَساً من أنفاسهِ المتحررة ترسمُ شوقَها ردّاً على رسائلي التي غدت لا تحمل له سوى لوعةَ قلبٍ يكاد ينفجر من فرطِ انتظاره وأمانيه ؛ انتشائه وتفانيه ؛ ركضه اللاهث باتجاه أفقه المرتجى ، وانطوائه عند دكّة الانكفاء .. قل له أنني ..... .

ولم تُكمل ! ذلك أنَّ الحريقَ اندلعَ في مضاربِ جَلَدِها فأحرقَ ما كانت تؤمّن عليه من قوّةٍ تحمِّلها ؛ وقطع عليها دربَ الوصولِ لإنقاذه . كادت تصرخ في وجه الله : كفى .. كفى ، أيها المتجبِّر . كادت تخرج عن شرائع الوجود فتهتف : هات حبيباً أبعدْتَهُ بكل ما لديكَ من ساديةٍ ، وما امتلكتَ من عذابات .. قف لتضع بكفّي أنفاسَ حبيبي ، وتعتذر . فتراجعت ، وتأسّت . وأقطبت ، وانكمشت ، وعزت غضبها وجحودها لعجزها عن امتلاكه ، فهو بعيدٌ ، بعيدٌ ، بعيد ! من أين تأتي بأجنحة ملائكة خارقة لتطير إليه بلحظةٍ فترمي برأسها على ساعده وتنام نوم الهناء ، طفلةً افتقدت أراجيحَ الجذل ونسيت بالونات البهجة بينما يدسُّ هو وجهه في ثنّيات شعرها الغزير ويستنشق شذا أنفاسِها ويتيه ارتحالاً في سهوب دواخلها اللهيفة لاستقباله واحتضانه والانصهار به .

نهضت من جلسةٍ تشبه حركة الاعتكاف فعزت وجودها في هكذا حال لغير وجودها في حالٍ كهذا ؛ فقد كانت ضائعة ، وبعيدة ، وراحلة . أثاث غرفتها والصالون التي خطت على بساطهِ اعلمها بحزنٍ يتنامى في قلبها ، وهاجس يعلن وجوده أنها لن تلتقيه اليوم على قارعة المَسنجر إذ ألمح لها بالأمس أن وعكةً داهمته لم يرد أن يُعلِمُها أنَّ سببَها هي ؛ لكنَّها علِمت من عُظمِ شوقه وشِباك حنانه العذب الجميل أنَّ قلبَهُ مازالَ يخفق بنبضِ شوقه لمحادثتها ، وأنّه ذكر لها مراراً " أراغون " وكيف حوَّل الفضاءَ عالماً لخلودِ " ألزا " ووظّفَ اللغةَ العصيّة وجعلها ديباجةً نحتَ على نسيجِها الحريري ، حبَّه الحريري ، وهتف في وجه الأيام هتافه الخالد : " أنا وألزا روحٌ واحد مهما وقف الموت برزخاً .. نعم ألزا ! انتظريني .. " .

وكانت هي على انتظار .

وكان هو على رحيل .

وكان الاثنان على لقاء .

وكنَّا لهما من التبجيل ما ندهش نحن المنصتين أو القرّاء لهكذا وفاء .

وكانت في دواخلها تصرّح : أنا ألزا .. وفي ذاكرتها تترجمه أراغون ... ورغْمَ ذلك ترى طيفَهُ نائياً وإنْ دنا ؛ وشوقَهُ يضيع وإنْ عظُم .

يصرخُ في هجيرِ بعدِها المتراغي : متى نلتقي ؟

فتكتم تواليات الرد ؛ لأنَّ هذا من عِداد عدم التحقّق . فالمسافات تستطيل وتتمطّى ؛ والسنين تعدو وتلهث . وهو في جنون رجائه العميم ، وندائه المتناسل استمر يصرخ : أنَّى اللقاء ؟!

يتطلّع في أعماق عينيها الماثلتين في صورتها المنتصبة أمامه ، ثم يفوه غرقاً بما قاله أراغون يوماً لألزا : " عيناكِ عميقتان حتى أنني أفقد فيهما ذاكرتي . " فيضيف : أنتِ ربيعُ ريحاني ؛ فمتى تهلّين ليينع الريحان ، فينثني غنجاً ، ويفحُّ أرائجَ ؟! "

" آآآآه .. المسافات !" .. تصرخ في فراغ حياتها الهيولي .

تطأطئ الرأس انكفاءاً ؛ ولا تريد أن تلخِّص مرارةَ المحنة التي يعيشانِها تفصيليا ويوميّاً . فتفسِّر ولو من بعيدٍ جناية المسافات وثقلها .

آآآآآه المسافات ! .. يعتصر قلبُها .

وهي تدري أنَّ قلبَهُ كوكبٌ شرع يستعير خواصَ النيزك ؛ وأنه آخذٌ بالانفجار ، مستحيلاً سيلاً نارياً سيهوي بكل جموحه في هوَّةِ العدم .

فتمتمت بانكسارٍ، وحسرةٍ ، وانطفاء :

لن نلتقي ! أيها الحبيب المُرتجى !

أنا واثقة أننا لن نتقي .

السماوة

2005/4/21

أرجوزة الزغاريد

ما كان ليلُها الطويلُ أنيسا ؛ لا ولا نظرت إليه وعاءً للتحاور . فقط وجدت فيه انتظاراً لمن سيأتي لأنّه وعدها بمجيئِه لا محال ، متلفعاً أرديةَ الظلام كسواترٍ للتخفّي .. يدخل عليها كقطٍّ بلوامسٍ هلاميةٍ وأنفاسٍ حبيسة ، وعينينٍ مختلستين . تغلق البابَ بمفتاحِ الخشيةِ وتستدير . ترتمي عليه : تحتضنُه / تشمُّه / تغرزُ أصابِعَها بين مفارقِ شعرِه ، وتنتحب : آآ يا ولدي ؛ كلّما خرجت وودّعتني حسبته آخرَ يومٍ للّقاء . (كانت تعيش الأيام على مائدةِ الهواجس ، متطيّرةً لطرقاتِ البابِ المتلاحقة ؛ سمعتها تتعاقبُ عبر سنواتٍ طويلةٍ ثقيلة ؛ مُرتعبةً لصوتِ مُحرّك سيارة كلّما هدرَ عن قربٍ تظنّهم جاءوا كالعادة : عيونٌ ذئبية غادرة / ألسنةٌ بذيئة داعرة . ينطقون بمفرداتِ الطعنِ الغادر ، ويخطونَ بأقدامِ الفتكِ السادي ... تدري أنهم جاءوا من أوجارِ الضباعِ النتنة ، وولدوا من أرحامٍ كخضراءِ الدمن تضجُّ بالقديد والعفن . لا تعتب على مَن أتى بهم وأولاهم نواصيَ لم يفتحوا عيناً يوماً على تخومِها ؛ لكنّها تتأسى على زمنٍ سيُحسب حقبةً وتاريخاً يُدوَّن لها ولأقرانِها والأولاد . تردُّ على أسئلتهم الراعفة سُمّاً إجاباتٍ من بابِ عدم المعرفة .. يستفهمونها عنه : متى أبصرتِهِ آخر مرّةٍ ؛ وأي مكانٍ يُحتمل التواجد فيه .) ..

في كلِّ لقاءٍ تجيءُ به كفُّ الأسرار تجده يزداد يفاعةً ؛ ويتفاقم اصراراً . يَعدها بقربِ حضورِ الشمس ؛ ويعرض عليها صورَ هلعِ الجُناة القادم :

_" أيامهم يا أمّي تنحسر ؛ والطوقُ يضيق على أعناقِهم . الدوائرُ تدور فاختزني زغاريدَك لتطلقينها في حضورِ النور الساطع احتفاءً مَعهُ وبه . " .. تتقاطرُ دموعُها على خدِّه لحظةً تطبع قبلاتِها الحنون على جبهته :

_ أشكُّ في ذلك ! .. تهمس .. لقد نسينا الله ، يا ولدي .

_ اعتبري كلامي رصيداً لسرورِك الآتي .. علّقونا من أرجلِنا كالخراف ، سنعلّقهم من آذانِهم كالقِردة .

وغاب .. وطالت بغيابِه الأيام . بيدّ أنّه كان يبعثُ إليها : " أنا في حمّى الاشتغال ، يا أمّي . سألقاكِ يوم الوفاء . "

الأيامُ تحملُ أخبارَ اقترابِ الشمس ؛ ومعها تحملُ رائحةَ انحسارِ عطن الأوجار .. سمعت أنَّ الرعبَ انتقلَ لصدورِ الضباع ؛ والهلع يتفشّى راجزاً على قسماتِ وجوهِهم الغبارية . كُثرٌ منهم طفقوا يتسللونَ كفئرانٍ يرتدون أوشحةَ الجُبن وينسلون كخيطِ الظلام .أما القلّة فيتظاهرون بعنفِ الزمن الذي يظنّونه ما زال بأيديهم ، مُظهرينَ سيوفاً مثلومة تقطر دماءً وردية ما زالت عالقةً ، غير أنّ سيقانهم تفضحُ خيبتَهم ورعبَهم بفعلِ ارتعاشٍ يوشك على تعثّرهم ، أمّا شفاهُ المطعونين بخُبثِهم فتبثُّ كلماتِ الهزءِ مُشعَّةً باتجاهِ عيونِهم المركّبة ما دفعتهم بإحدى نهارات قدومِ الشمس إلى التواري فلم ير أحدٌ خطاهم المُعفَّرة بالعار تلطِّخ ثرى الطرقات . ولم يتحسسّ أحدٌ انفاسَهم الفاغمة لأنَّ النورَ الزاحف من شتى الأصقاع ، والأريجَ العذب الهاتف في كلِّ الأنحاء أعلنَ قدومَ صُنّاع الأمل أرتالاً ، أفواجاً ..

الحناجرُ في الدروب والطرقات تفجّرت موقِظةً قلبَ الأم في فناء بيتِها الذي لم تصله هكذا احتفالية أبداً ، فاندفعت صوبَ الزغاريد تزغرد دون أن تسأل ، فقد حدست تلك اللحظة ايفاءِ الوعد وترجمت صدقَ القول . تداخلت مع الجموع المهللّة المُنشدة بأصواتٍ هادرةٍ رخيمة . زغردت بكلِّ ما في حنجرتِها من قوّةٍ وخزينِ صوت ؛ وانهالت تنثرُ أشعاراً لا تفقه كيفَ توالدت .. هكذا بلا وجلٍ ولا استدراك ؛؛ واستمرت تزغرد وتنثر .. تنثر وتزغرد ؛ حتى وهي تبصر تابوتاً ترفعه الأيادي المشدودةُ باتّحادٍ يتجه صوبها .

2003 / 7 / 20

تماهـــي

أدخلتها العتمة موشور الضوء مستبيحةً مساحةَ الانبهار المنهمر من البؤرة المهيمنة في الإنوجاد الفضائي الحالك للغرفة الحسيرة التي ظهرت كما لو كانت سجناً إجبارياً محكم الإغلاق؛ (ذلك الإنوجاد الذي بمثابة جدران لا مرئية ألغتها كثافة الحلكة من قاموس الأبعاد الهندسية) . لا تدري الفتاة الحبيسة كيف انبثقت تلك الحزمة لتخترق طابور الظلمة ودفاعاتها ؛ ولا هي أدركت الفوّهة التي نادت على لهيب الضوء وتأجّجِهِ ، ودعَتَه للولوج بغيةَ تهشيم عالمٍ كامل ... الذي أيقنته هو تبدّل الفضاء وتبيان أشياء نسيتها فتبدّت الآن تمتلك ألسنةً تدعوها للاستحمام بعبير النور .

كبّلها الارتعاش حين همّت بإولى خطوات التحرّك ،، مثلما ساورها ظنٌّ أنها تحلم ... عاجلها الهيام / أفعمها بالوله / قايضها بالتمنّي عندما استطالت الأشياء وعلا صوتُ دعوتِها ..

التشكيل الدائري السابح في تماوج اللا رؤية والمحاط بهالة شعرٍ يتماهى ولون الكستناء سرعان ما أظهر لها وجهاً حائراً ، وقواماً متحفّزاً للوثوب ..(كان الانعكاس بمثابة مرآة... وكانت اللحظة تترجم حميمية المحيط ؛ رافضةً قيود العتمة ..)؛ وعلى مرأى من توالد الإبهام رأت بوادرَ أملٍ في تساوق النظر ، فاكتشفت صورةً لقرينةٍ ، وترجمت ملامحَ لفتاة . شرعت تخطو باتجاه عالمٍ حلمي بمثابة إنقاذ إذ كلّما كانت فقاعات التمنّي تكبر كانت أهرامات الترجّي تستطيل ... كلاهما تكوّنا بدافعِ الإنقاذ استجابةً للنداء ...

التقط موشورُ الضوء قدميها مثلما سحبَ ملامحَ الوجه فاستحمَّ الجسدُ الفتي / اللدن بألوانٍ طيفية خلقَ بهاءً فيضيّاً ، ودَهَشاً فائضاً بعيني الفتاة .. تتزاحم لديها الأسئلة المبهمة إزاء وجودها المبهم ؛ إزاء

رغاوي الانسلاخ التي تتفاقم فتلحُّ عليها لتناول خيطِ الانطلاق ورفض الجمود الذي يعني التحنّط تحت وطء القناعة الزائفة .

تراءت لها الحِلكة فضاءً لا وجود لهُ .

تراءى لها النور عالمها الكلّي ، والانبثاق المحيطي أبجديّةَ خلقٍ وتسامي تحرُّكٍ ... غدت ذاهلةً / راعشةً / هائمةً / حالمةً ... قالت : إننّي أعوم !! ... ولم تدرِ أنَّ موشور الضوء أقسمَ أن ينقلها إنقاذاً من ضغوطات داخلية (ترتقي إلى الذات) وخارجية (تدنو من الظواهر) حيث يومها الحق وحقُّها الحتيم ، مستسلمةً باندفاع للوامس طيوفٍ أحسّتها تفكك جسدها ذرّاتٍ وانهماراً ، ناقلةً إيّاها إلى مصاطب كينونة مغايرة لم تُبصر عبرها مقيّدات اللحظة ؛ ولم تكن هناك جدرانٌ ومكبّلات .. هناك دخلت فترجمت شيئاً واحداً : دنيا سطيعة ، مشرقة ،،، منفتحة وبهيرة ...قالت : هي ذي جنّتي ! وعالمي الذي أبغي ...

اندفعت في الغرق اللذيذ ، والتماهي الرائق / الشفيف ،،،،،،،،،،،، .

وذابت ....

تَمــادي

ما كان حلماً ذلك الذي تجلّى ، ما كان رؤيا ؛ لأنَّ الذي مرَّ صارَ من عداد أسئلة تهافتت باحثة عن ردودٍ تشعل صقيع التبلّد ، وترمي على تلال الماء مراسيم التفتت . هذا إذا أقرّت هيَ (لكم ، ولم تُقر لي) رغبةَ التواصل وخرجت من فيافي الصمت المميت ؛ حيث الأنامل الشمعية تطبع تاريخها لهباً من انسحاقٍ وتمادي يغذّي الروح بالتآكل عندما قالت لها النصائح قفي أيتها الفراشة اللاهثة خلف بيارق الاشتعال .. تمهّلي بلهفتكِ يا راكضة باتجاه شغف القتل اللذيذ .. يا شهد الطلع / أيتها الرهيفة المتلفّعة عباءة المساحيق الشفاهية .. رويدك يا خارجة من مضارب المازوش....

ما أبِهَتْ ..!!

لن تأبه ...!!

ولم تعرف لنداءات التحذير ترجمةً ..!!!

انطلقت غارقة /عائمةً . وظلّت متوارية / هائمة ... تنده بالنور المتذبذب قدّامها أن يمارس التعثّر كي تلحق به وتنسفح على دكّته ؛ وكان هو لا يُعير همّاً لرجاءاتها السحيقة ، لأنَّ الفراشات ، الفراشات كثرٌ ؛ والمُحترقات ، المُحترقات متهافتات تترى ... يواصل السير حثيثاً ، ممتشقاً سيف الكبرياء السادي ، رافلاً على أديم الجراح الفاغرة لطعيناتٍ توسدنَ روابي الخديعة والتحفنَ الذكريات الرمادية ، ساعيات بعيون الندم لتلقّي نداءات الإنقاذ ؛ ولكن لا صوت للبحّة / لا مسامع للتشفّي ... وكانت هي تزرق ساقيها برغبة الجري الهوائي ، ناشرةً / واهبةً جناحيها لتطويق عنقه النوراني النيّر ، وحيازة عطر الغواية

حصيلة اللهب ، لا رماد الاحتراق ... آن مددتُ لها أصابعي ترسم برزخاً / تمنع انتحاراً . فما الذي حصل ؟

قُضمت الأصابعُ ؛ وتفاقم عنادُها . ازدادت الهمهمةُ وتكرّست جحافلُ التحدّيات . يومها توقَّف اللهب أراهُ / أراها من بعيد . استدار فارداً ذراعيه لأجنحتها الرحيقية وأنفاسها اللاهثة ، وعينيها الممتلئتين شوقاً وانبهاراً بوهجهِ الساطع الذي سرعان ما بثَّ سحرَه الحارق ، مُطلقاً صوتاً كالشواء / مستأنساً لارتطامِ رخيم عند قدميه الباردتين .. هل اتّعضَت ؟! ....

2003/11 /26

تمادي ثاني

إتَّخذت كتفَ النهر وجهةً ؛ وانحدرت خُطاها تلتهم انسراح الدرب .. ثمَّةَ السكونُ يُناغي خَدَر الماء ؛ وغفوةُ النهر تُحاكي همودَ شجرة سدر ، جامعةً حلكةَ الليل كي ما تحُقِّق رقاداً رَغداً لعصافير أغصانها المتعانقة فيما دبَّ من بعيد / من ضياع الأفق في لُجَّة البساتين المُدلَّهِمّة بالعَتَم نسيمُ هواءٍ مرَّ على وجه الماء فجاء بالطراوةِ والندى يمسّان وجهها .

قالت لها الوحدةُ : خُذي من جسدي ثوباً لمشاعرك ؛ وفصِّلي من انهتاكي صوراً لماضيك .. تذكَّري ذلك الذي سحقتِهِ بكبرياء زيفِك المُبَهرَج ، وأطلقتِ عليه رصاصَ هجرِك ، ثم أرديتِهِ قتيلَ اللواعج / شهيدَ الانتظار .

وقفَتْ كتمثالٍ يقتني شبحاً ؛ ونطقت كلاماً يحترق ألما .. تقول : تعالَ من بين ثنايا الماء الذي ابتلعَكَ فأغرقك !.. أُخرجْ من هَياج اليمِّ لأُلقي عليك اعترافات حُزني ، وسوناتات لوعتي ،، ثم تهافتات ندمي ، لأنَّكَ الأسمى لدي بعد انكفاءات أعوامي المهدورة على صخرة التمادي . أنا لكَ الآن ؛ فكُنْ لي بعد الآن .. أجيئُكَ هفواً ! فقُلْ ها قد جِئتُ احتضانا . رُحماك ! مدَّ لي كفَّ السماحةِ لأبكي عند ناظريك طفلةً فقدَت أفانين اللعب الخضيب ؛ وخذني كافرةً باقانيم غرور أرعن .

من خلفِها / من جانبيها / من فضاءات دواخلها / من كلِّ الأصقاع تناهى إليها دبيبٌ هادرٌ يفتضُّ خَدرَ الرمل ويستهينُ برعشةِ الليل السَّكْين . ودَنت منها جيوشُ عقاربَ رعبٍ تبغي إرسال زُعاف سمومها إلى قلعةِ قلبها الخافق / الدافق فهمّت بإطلاقِ آهة استغاثة أو صرخة تشفّع عندما انفلقت صفحةُ الماء وقال لها فمُ النهر : هلمّي ...

لاهثةً اندفعت ، تخوض في غمار الشوق ، غائصةً إثرَ نداء الأعماق ...

هناك !

هنالك ! .. كان بانتظارها : ثغرٌ باسمٌ ؛ ووجهٌ صبوحٌ ، صبوح !!

قالت : آآآآ .. خذني !

و..... !!

رومانس

دنت على وقع همسه واستجارت بفيئهِ البَرود ، يرافقها الحنين يملأ رغبتها في العناق ... أثلجها أنّه ضمّها إلى لهفته ؛ وأبهجها نغم حروف تخلقها بواعث مبادلته للمودّة .

لم تقل له جئتكَ من أقاصي الوجد لألثمَ فيكَ رضاك ؛ بل تركت لأناملـه سبرَ دفائنِ شوقها .. قرَّبَ شفتيه من جبهتِها الصافية ، وهمَّ بالتهامِ أنفاسها ... تقاطر رذاذُ روحِها يعرض أبجديات الحياد فعاجلها بالثَّمل .. اكتشفته يغذُّ الروح وصولاً لنواصي الأعماق .

قال : آه ! " أنتِ تقتلينني " . فتذكّرت أولَ حبيبٍ رشقها برسالةٍ فيها من البكاء ما يكفي لتدوين نصٍّ يحمل أسوارَ الاكتمال المُطعّم بالغدر ... أرادت سحبَ شفتيها من الانغماس العذب لتحكي له الومضة التي انبثقت فجأةً ،، فعاجلها : " لا تكلميننـي عن ماضٍ غدا نثاراً .. كما أنني لستُ كالآخرين .. " .

دُهشت : " كيفَ فهمتني ؟! "

فاستجاب :

_ عيناك كلَّمتاني ،، وقلبي أوحى لي بالترجمة .

رحلت بعيداً ...

رحلت إلى حيث الافتقاد الثقيل لأبٍ هجر الأم وتلاشى ؛ وأمٍّ تعزّت بزوجٍ ثانٍ أغدق عليها صفيف الأبناء ، فظلّت (هي) كما الزورق في خضمٍّ مجهول ... كلٌّ يكلّمها عن بُعد ؛ كأنَّ جدراناً شُيّدت لتمنع عنها الحضن الحاني ، والهزهزة الشفيفة ،، كذا الأنفاس النورّانيّة ...

ويوم تواريت أمامها أبواب الشباب موقنة بطريقة التتبّع المرآتي أنَّ جسدها يتغيّر ، ودواخلها تأخذ شكلَ التخلّي السحري نفضت غبار الضمور ، هاتفة بالخمود الابتعاد عنها بينما توالدت لديها استنتاجات بهيئة إعجاب فائر في عيونٍ تتبارى لاغتراف طلعتها وهي تضرب إسفلت الشارع بأقدام المَيس ... اكتشفت أنَّ التجاهل غير المحسوب والإهمال المُفترَض من قبل الوالدين ينبغي لهما التعويض ؛ وأنَّ فراغ الحجرات الطفولية آنَ له الامتلاء ..[لقد سألت نفسها مراراً أنَّ الحياة حَبَتها بملامح لا تمتلكها الأخريات فلماذا لا تمارس صيدَ الإعجاب ؟؟] ..

أرادت أنْ تهبَ له جميعَ سهوبِها ؛ وتفتح له مغاليق الجنائن بعدما استشفَّت فيه بواعث التحرر ... لمساته تُدوِّن رواية الانوجاد ومن فمه تحصد سيمفونية الغرق الجميل . كادت تسلّمهُ _ هذه المرّة ارتضاءاً _جملة المفاتيح ،،، لولا الأصوات الزاعقة هجمت عليها بغتةً من ما وراء تلال الضمير ناهيّةً . فانصعقت بالجَفَل والتصلّب ، وانكفأت بالبَهَتِ والتهجّس وسط ذهوله المنشطر وحشد أسئلته الصامتة .

صرخت في بريّة التكبُّل : " لا .. لا .. دعني أذهب ! " ..

لم يباغتها بردٌ بعدما بددَّ الذهول ... ولم يُظهر لها نأمةَ استنكار أو تطفّل إذْ حدسَ قلبهُ تراكمات الصور الخبيئة ،، وفسَّرَ بعقلية المتفهِّم التجارب المُخيّبة التي تهالكت بمطبّاتها مُنتجةً العثرات .. وحتّى كفّها المستحيلة قطعة ثلجٍ بين كفّيه رأى فيها علامة ارتعاش .

تركها تنسحب خارجةً / مُبعثَرة ، دارياً أنَّ يوم غدٍ سيشهد انهزاميتها ؛ وسيجد الباب يُطرَق ووجهها يطلُّ مُتّشِحاً بنظرتين كسيرتين ، وشفتين متقشّرتين يطبعهما الاختلاج ، والنزق .

تعالق

يوم أمطرت السماءُ شذا النرجس كان هو متخِّدراً ، يعدو في كل اتجاه ؛ وكانت هي على جناحِ فراشة تطير (غريباً بدا ذلك النهار ؛ وغريبةً تلك اللحظات المضمّخة بالحيرة والذهول ، تزحف ببطءِ سلحفاة .. بطءٌ ما عهداه ، ولم يوعَدا به . ذابت عند أقدامهما وتلاشت صغيرةً أمانٍ كانت عصيّةً عليهما في عالمهما البعيد الذي خلَّفاه وراءهما . تلك الأماني كانت لهما مثل أقمارٍ وكواكبَ يتعقّبانها علّهما يضفران بامساك واحدة . صار كلُّ شيء بأيديهما ؛ وصار كلُّ ما لم يحرزاه هناك يسيراً هنا) .. قالت له كالحالمة وعيناها السوداوان نصفا مغمضتين : " دعنا نذهب هناك ! " وأومأت إلى فيضٍ ألوان طيفية متجانسة . فأجابها ؛ بل هتف صوتٌ من أعماقه : هيّا .. هيّا . فتهيّئا ؛ وانطلقا .. انتشيا في العدوِ .(اخترقا ذلك الجدار الشفيف ؛ وخرجا فأدركا مدناً ورياضاً وشطآن . دخلاها كالفاتحين أو كالمتلقّين دعوةً للذوبان . تجوَّلا في شوارعَ حفّتها منابت الورود وظللَّتها وارفات الشجر . دلفا بيوتاً أشرعت أبوابها حالما تحسسَّت انفاسهما . جعلا يتفرجان ، يترجمان معالمَ أسبغت غرابتها دهشةً في دواخلهما اللهيفة . في مسامعهما عجَّت أصوات رخيمة متماوجة كأنها قادمة عبر تدفّقات مائية من جدران ناضحة ؛ ثم راحا يخرجان من بيتٍ لبيت ، ومن أرضٍ لأخرى) حتى إذا أدركا مدّاً مائيّاً يتَّخذ شكل قلب نزلا إليه يستجمّان بطراوته ويذكيان في دواخلهما عالماً من الجذل والانتشاء . يغطسان ويعومان .. يغطسان ويعومان . وإذْ شعرا أنهما اغترفا الكثير الوفير من مناهل الحبور استلقيا على ظهريهما يتابعان زرقة السماء وتشظّي سهام الشمس الدافئة ، ويحاوران صدى روحيهما الطافيين على زرقة سماء باهرة دون أن يعلما سخونةً مفاجئة طفقت تعلو إليهما من جوفِ الماء .. تعلو وتشتد ؛ تشتد .. تشتد حتى تركت الأعماق تغلي ، ومياه السطح تتبخر فيكتوي الجسدان .. صرخت هي .. صرخت . رآها ترتفع مع البخار وتتفكك ثم تتلاشى . هتف بها ! هتف .. هتف ... وإذْ فتح عينيه أبصرها جالسة على حافة السرير ترنو إليه بعينين دامعتين ، وشفتين متيبستين . ومن فوق حبال الألم المشدودة إلى خاصرته سمعها تهمس له :

آ.. يا حياتي ! لقد كنتَ تنعُم بنومٍ هادىء طوال الليل فما بالك الآن ؟! .. لم تسمع له ردّاً سوى أنها جوبِهت بفتاةٍ ترتدي البياض تقترب من السرير وبيدها حقنةً ، قائلة أنَّ مفعولها سيريحه لبعض الوقت .

خريف 1997

تشكيل

دكنة ثقيلة يشوبها لونٌ قهوي بهيئة رتوش تقصَّدت الريشة إظهارها لتُقلل من وحشية العتمة ، أو لإعطاء إيحاء تأويلي لنثار دم قلب يعتصره ألم نازف .. ولم يكن الاطار الصغير ، المزخرف بموزائيكية مثيرة وهو يستند على سطح الطاولة المستديرة داخل فضاء اللوحة سوى قيداً يُحنِّط حياةً تملأ وجهاً ذكورياً لا يخلو من الوسامة ؛ يتطلَّع بعينين مُعاتبتين لمتطلِّعة تتكىء على حافة الطاولة بمرفقٍ ناتىء وساعدٍ عارٍ وكتفٍ شحمي يتخلّى عنه القماش المُناط به مهمّة الستر .

الوجه الانثوي يرنو جانبيّاً بتحديقٍ ترشح منه فيوض ندم ، ومفردات استعطاف .. أيضاً طلب مغفرة ؛ ثم سؤال يتهاطل من الشفتين ، يتجاسد :

_ دعها تعود أيامنا التي سفحناها على صخرة التمادي .. دعني أكفِّر عن غرورٍ نفخني كبالونة فلم أعد يومها أُكرِّس لحظات الاستماع لرجاءاتِكَ المغموسة بتحذيرات مُحبٍّ صدوق .. آآ .. متى تمطر عليَّ سماحتك فتعود ؟

يتناثر السكون ؛ والصمت يفتضُه احتكاك فخذين انسحبَ عنهما الثوب اللحمي الشفّاف وتركهما يُبرزان شبقاً جنونياً ، يُعززّهما الكفَل الممتلىء على مساحة مقعد كرسي لا يستوعبه .

يُحدِّق وجه الصورة في تأثيثات اللوحة ، ولكن من الخارج .. يُحدِّق كبروفة نهائية لاكتمال العمل . يرى إلى الخصلة الطويلة الجعِدة التي يوماً ما كانت انشوطة للهفتهِ وحُمّى اشتياقه ... الخصلةُ تتبعثر على جانب الوجه الذي لم يظهر مكتملاً .(الصورة جامدة ، ووجه الرجل المغموس في التحنّط يعود لسنوات تهرب من ماسك الفرشاة الآن ، فقد عدا الزمن ؛ ورذاذ الألق نأى عن حقول النضارة ؛ أمّا الذاكرة فتعود إليها داخل أبعاد الفضاء ؛ وتعود إليه في خارجه .. تتذكّر .. تتذكّر ؛ ويتذكّر الجلسات الوحشية الجامحة : قبلات جنونية ، تماسّات لاهبة ، مع رحيل ناري نافر ، وهائج ، ومهووس .قالت له :

_ هل سترسمني ؟ .. وكيف ؟

قال بجواب القُبل :

_ نعم ؛ ولِمَ لا ؟

قالت مائعة ، متضافرة مع غنجها :

_ لا أريدها متدثِّرة بالرمزية حسب مدارسكم ورؤاكم الغريبة .. كلاسيكيّة أرومها كما الجيوكندا . باهرة كزهرة عبّاد الشمس ؛ أما الخلفيّة فمرجٌ مُقتطَع من دنيا الفراديس .

يومها كانت تتلقّى رسائل الاعجاب نظرات ممّن تمرق رافلةً أمام حسراتهم . وتزاحمها العيون تلتهم الشهد المغموس بتقاسيم قوامها المايس ... يُحذّرها منهم ويتمنّى راجياً :

_ إيّاكِ ؛ إيّاك ! .. إنْ لعقكِ لسانُ الغواية لن يترك لكِ طعم البقاء . ستستحيلين شمعاً خلا عنه الشَّهد ؛ متروكاً لأصابعَ الاهمال . ستومئين ثم تندهين ، ثم تصرخين ولكن لا أحد .. وعندما ستعودين إليَّ لن تجديننـي . ستحصدين سنابلَ الندم ..إيّاكِ !

تنسكب الحسرات ، والخدُّ الشاحب للوجه الانثوي الجانبي احتضنَ دمعةً متدحرجة (كنهايةٍ لانسياب دمع) عمَّقَ تكورَّها اللامعَ طلاءُ " الوارنيش" مترافقاً والتماعة السائل الدمعي الذي سال فشكَّلَ رقعةً دمعية مائية على سطح المنضدة ؛ تماماً بجوار قارورة فرغت للتو، وكفٌّ على وشك التقاط قدحٍ حوى سائلاً ذهبيّاً ... وكان الفنان صاحب الوجه المُحنَّط بالاطار يطالع بالشوق المطعون والألم المُفصَّد راحة الانجاز .

زلة 2001

بورتريت

فجأةً وجدت نفسَها أضحت فتاةً لها الحق في أنْ تزهو وتحلُم وتطمح وتنطلق كاللواتي سبقنها ؛ فكانّ عليها أنْ تخلِّف وراءها صحائفَ كثيرةً من العبث والنزق والدلال المصطنع . باتت تُكثِر الوقوف أمام المرآة ، تتملّى شعراً قهوياً يتماوج على الكتفين ، ووجهاً اتسعت فيه العينان وارتوت الوجنتان ، تبزغَّ على بشرتها حبيباتٌ حُمر فيما الشفتان بضَّتان امتلأتا وتبرعمتا حتّى ظنَّتهما _ ولأكثر من مرّة _ أنهما متورمتان .. وجدت المرآة تمنحها الحفاوةَ والإبهار ؛ تبوحُ بالذي لا يُباح . خطت متَّخدِرةً نحو نافذةِ غرفتها فأسدلت ستائرَها واستدارت تغلق الباب . ومعها ارتفعت الكفُّ لتضغط بأناملها الشمعية أزرارَ المصابيح تطفئها ، إلاّ واحداً تركته يشهد لحظات البوح والتحرر والاحتراق ... وأمام الجدار السحري رأت قرينتَها تخلع قطعَ الملابس وتنثرها بكلِّ عبثٍ ونفور ؛ فاستقبل السريرُ قطعةً ، والأريكةُ قطعةً ، وبساطُ

الأرض قطعةً ، والكرسيُّ المحاذي للباب قطعةً ؛ وقطعةً أخرى ضربت بها الستارةَ فأحدثت صوتاً مكتوماً _ هو صوتُ انزلاقِ عتلة شدِّ الستارة التي زحفت قليلاً فلم تأبه لها _ طالعت مفاتنَ القوام الماثل ، وتحرَّت بجذلٍ خارطةً غريبةً لها وسائلٌ إيضاحٍ مُبهرة .. أبصرت سهولاً وجبالاً ومروجاً وأنهاراً وشلاّلات من عسل .. آآآ ؛ جعلت تكررها بهمسٍ : أحقّاً أنَّ لي كل هذا ؟!..

عبقَ فضاءُ الغرفة بشذا عجبت كيفَ استباحها فأغرقها . عامت في بحرهِ لوهلةٍ ، وارتعشت لوهلةٍ .. ولوهلةٍ أُخرى لم تعِ ما فعلت ؛؛ غير أنَّ الجدار السحري كشف سرَّ اللحظاتِ المتهافتة فقد احتوى لوحةً لفتاة عارية يضمّها سريرٌ وثير ...

بـوح

بوميضِ النيزكِ الملتهب ..

باحتراقِ شمعةِ العمرِ أزيح عن نفسي غبارَ التردد وآتيك _ أيها العزيز _ . عندما تنطبقُ ألأجفان تضمُّكَ صورةُ وتحتضنُكَ حلماً . تطلقُ لسدولِها العِنان رافضةً محتَّجة على أيّما طارقٍ لأبوابها كي توارب ، لئلاّ تتسللَّ دونَ درايةٍ منك أو تختطفُكَ لوامسُ الهواءِ الذي يمسّ قوامَك السادرَ في المكوث عند تخومِ عيني .

عندما سأعلن اعتقالَك الاختياري سأبوح بسرٍّ يقول : مُعتَقَلٌ يستعذبُ سجنَه . سأعلن تفاصيلَ بهجتك التي تتفوَّق على بهجتي . هل شاهدتم عزيزاً يلغي وجودَه في حضرةِ الواقع ليمسك مكامنَ الحلم ؟ (يوم سلَّمتني ذلكَ الغصن الأخضر الدقيق المتوَّج بزهرةٍ ارتوت وريقاتُها البنفسجية وفاحَ جوفُها بالأريج المُخدَّر قلتُ في نفسي : شاعرٌ عبثٌ يبحث عن انطباعٍ عاجلٍ ؛ فعاجلتُكَ بابتسامةِ رضا وكلمةِ شكر ، فاذا هي البداية) .

أيها العزيز : لقد انتشلتني من منابعِ اليأس بعدما تهدَّمَت أمامي وقوِّضَت ثلاثون سنةً ، بل واثنان فوقها ، كانت الأيامُ فيها تلهثُ مسعورةً ، والأشهر مرايا تستفزّني بسخريةٍ موجِعة . وكنتُ على وشك الارتماء في هوَّة الجنون الغائرة في العدم . أترنّح فاقدة الوزن والتوازن ؛ لولا أن امتدَّت يدُك تنتشلني .آه ! لا يعرف السعادة إلاّ المبتهجون المتفائلون . كثيراً ما أحسست أنّي أرسمُها . زيّنتها ، مُلقية عليها ألواني الطيفية المائية ، الدافئة منها والساخنة ؛ وقلت أنّي أسبحُ في فيضها . أطفو على ابتهاجٍ رغوي لذيذ . لكنّي اكتشفت ذلك الإحساس افتعالاً .؛ وشتّان ما بين الصادق الأمين والمُفتَعل الكاذب . لعلّه اللقاء مفتاح اللغزِ المُبهم العصي . ذلك ما كنتُ أفتقد ؛ وذلك ما رميتَ به إليَّ لأفكَّ مغاليق الجنان ، ولأستعيذ بكَ من شرورِ الآمال الزائفة . زيفٌ جلّهُ الخيال . بريئةٌ هي البراءة . إنّي

أجمعُ ثمارَها الساقطة من دروبِ المتجنّين اللامبالين لأجني سرَّ الرّضا ... إنَّي أنتظركَ عند تخوم البدر .. هيّا فالقمرُ يقترب ، ورحيلُ الشفقِ يفجِّر إعلانَ بدءِ اللقاء .. إنّها ليلةُ السحر ، فهلمَّ .. هلمَّ أيها العزيز .

حيرة الأسئلة

حتّام تبقى السماءُ في فضاءٍ مكين رافضةً للغيوم الزائرة ؟ .. وإلامَ تظل هذه الربوع أسيرة فناءِ خمولٍ راجزٍ على سرّة الأرض الشسيعة ؟ .. مَن منّا لم يمسُّه لهيب التعاسة ، ولم تمزّقه نواجذ الفقر ؟ .. الأيام التي صرفناها من عمر السنين المتناسلة على كواهلنا ما عاد لها طعم نتذوق فيه شهد الأحاديث الجنائنية وخمائل الكلام الباعث على تفجير حجيرات الخيال . جملة الأسئلة الحيرى تنشظر فلا تُنتج غير حسرات ننثرها كقشٍّ جفيف في دفقة هواء ريحي ينقل للآخرين ملحمة آهاتنا الهائجة وجملة خطايانا الفائضة وركام أشعارنا المتهالكة ... أقف عندها وأفوه بكلماتٍ يقولون عنها " رسالة " : : أنتِ حبيبتي التي زرعتُ لها بطاحَ القلب جنينةً للمسرَّة . وندهتُ بها أنْ تعالي . يا قبلةَ البهاء وضحكةَ الطفل الرضيع ! أيتها الرازحة تحت ركام الغنَج الآسر والدلال الفائر اخرجي كي تصافحي أكفَّ شوقي ، وأعلميني بسيلِ أخبارِكِ فقد فرّقتنا الأعوام .. أنتِ في روضِ بهائكِ ترفلين وأنا أعومُ في بحرِ غربةٍ قاهرة أ أضاعت لي أحلامي القادمة ، وبددت أعوامي الضجيجة بالأمل . أبعدتني عن أعشاش حلمي الجميل في بيت أجمع ارتفاعاته كعصفورِ حنين يرتقي الألفة ويبحث عن الدفء الضائع ، المسروق . " .. يتوقف ؛ ثم يكتب : " إذا كنتِ نسيتِ جملة السنين التي دثرها غبار الأيام فآل بكِ إلى التوجه نحو مناهل صور أخرى فلا أضنك نسيتِ ضيق ذلك الزقاق الذي كان يجمعنا كملاكين رماهما الله في احد درب البراءة الحييّة .. هل ما زال حرف زاء محفوراً على ساعدك ، والسهمُ الطاعن للقلب يقطرُ عسلاً من دمٍ ؟ أم استحال قطعةَ جبنٍ يقضمها القادم من غابات الاستحواذ ؛ ملكَكِ كلَّكِ دون استثناء فلم يترك لي منكِ غير باعث الحسرة والألم والترجي أن لا تنسيني . أنتِ التي حفرتي (أتذكرين ؟!) على ساعدي بوشم الإبرة الواخز التي كانت طعناتها المؤلمة تبعث نشوةً داخلي .. لكأنَّ المازوشيا تفعل فعلها بأعصابي فتدون حفرَكِ القائل (لا تنساني يا زاء .. لا تنساني أرجوك ! .. هـ) .. والحقيقة لم يكن رجاءاً بل أمراً صرفتُ الأعوام للاحتفاظ به والإخلاص له .. وكم من عشيقةٍ دخلت معي في عِراك بحثاً عن كاتبةِ حروف الرجاء / الأمر بينما أحتفظ أنا بالسرِّ فيما أنتِ ترفلين على خمائل إرضاء القادم من غاباتِ الهيمنةِ ؛ ولم اسمع انكِ تشابكتِ وإيّاه في جدالٍ عن المحفورِ على ساعدكِ ؟ .. " آآآآ .

حتّام يبقى يتألم ، جريحاً ؛ والزمن يسرقُ من بضاعة العمر خلاصة الأعوام الوردية تاركاً بقايا حُطام أيامٍ متهالكة بينما صرنا نخطو مثقلين بتهالكات ألاماني التي تعثرت فلم تؤول إلى التحققات مستحيلةً نوايا تثير سخرية الزمن وهو يقتات متعافياً على شهدِ أعمارنا اللاهثة نحو الانصراف . نلتقيه ؛ فيقرأ لنا ما

كتبه لها : " يوم تواجَهنا ؛ تلك اللحظات المغيبية من ذلك الغروب الخريفي كنتُ أنا يصاحبني الهواء ، وأنت تخطين بجانبه يترجل منتشياً ، يصاحب هالة البهاء ويتبختر متباهياً بأنه يمتلك ملاكاً سرقه ممَّن هو أحقّ به .. كنتُ استحلتُ كتلةَ مرارةٍ وأسى وألمٍ وأنا انظر إليك رافلة ، وأنت تنظرين بملامح حيادية لا تشي بشيء .. آآآآآآ "

حتّام يبقى على أملٍ نحرته سكاكينُ الأيام ، ويستمر مصرّاً على أنها ستعود له ، ستأتيه وأن خطفتها أجنحة النسيان وأبعدتها عن شاطىء ذكراه وتذكره . كنا نقول له بما يشبه برقيات متتالية متتابعة : " السحابة التي انتظرتَ غيثَها هطلت على أرض بعيدة عنك ؛ فلا تسقط أسير الوهم والانتظار " ، " سعادةُ المبتهجين على خمائل الايام مسروقةٌ من حزن الحيارى الهائمين على هدي السراب ! " وأيضا ، أيضاً كنّا نقول : " كان حلماً وقد انتهى ! " و " الانتظار وهم ! " رأيناها وايّاه يسبحان في بحر من الزهوِ ، فكيف يحنَّ السعيدُ إلى مأتمٍ فرَّ منه ، فتعود إليكَ لهيفة .. أنت مجنون ! "

وكانت الايام تعدو .. وحلمُه بالعودة واللقاء ينضُب .

وكانت السماء ترسم تاريخاً لحياةٍ جديدة في وقت صارت خطانا تثقل .

ويوم التفتنا نبحث عن أنفاسه أخبرنا الفراغ أنّه كان جسداً بارداً ، مثلما أسرَّ لنا بأنَّ آخر كلمات كان يتفوّه بها هي : " سنلتقي ! .. أنا واثق سنلتقي ! لا محالة يا هناء ! " .

السماوة 2005/11/20

بانتـومايـم

عمَّت المكانَ عُتمةُ كاسحة إلاّ من حثالةِ نورٍ يمتص صفرةً كصفرةِ الرمال أسقطه السقف المرتفع – غير المرئي – باستدارةٍ ضوئيةٍ على الأرضيّة الخشبية / البيضوية كاشفة تكوّراً أُنسيّاً بدا كأنّه يستعيد حياةً بعد همودٍ أزلي .

تهاطلت رغبةُ الفضولِ من سماء تطلّع الناظرين / المتحنطين في أحضان الكراسي الجامدة المنفصلة ببعدٍ هلامي [ارتعب الطفل الذي داهمه الصمت المشيع ... أدهشهُ خفق فيالق القلوب المحتشدة التي سمعها تنبض هادرةً ،فمدَّ كفّاً مختلجة يتلمس صدر أمّه الجالس في حجرها وعنق أبيهِ المجاور لهما .. ألفاهما من عِداد التخدّر في كرسيين يتلاصقان ، وسمع من بين ثنايا حيرة الاثنين صوتاً دفيناً ينسل بحنوٍّ ندائي أنْ يجمّد سؤالاً ويوقف حركة لحين زوال المؤثر .]

تحرك النور يدبُّ على بواكير انفلات أعضاء ذاك الأُنسي الذي تمخّضَ تفكك تكوّره عن ترادفات ألوان قماشية تنسكب على جسد غضّ / نابضٍ بأنوثةٍ تقول :

– حكايتي تبدأ من سرّةِ الألم .. هكذا أنا ، ممتلئة أجيء ، وبالألمِ ذاته يرسمون تباشير فحوى الغياب . تبدّل لونُ الضوء فتخلّى الذهبُ عن البريق للأرجوان ... تشكّل ألواناً مغايرة / تتصادم .. استحالُ القماشُ المسربِل للأعضاء خلقاً متبايناً .

فمٌ على كرسي مجاور همسَ :

– هذه سريالية فاضحة ! .. هذا جنونٌ عابث ! !

أعقبهُ صوتٌ من خلفٍ ، إكمالاً للرؤية :

– كأنها حياتنا .

مزقت الصمت هنّةٌ ، أوتمتمةٌ ، أو آهةُ من جسد شرع يؤدي لوحات تشكيلّية هي من عداد التعبير الصوري اعتماداً على لدونة الأعضاء / توافقاً مع توالدٍ هارموني لآلات وترية ، وأخرى هوائية انبعثت من وراء الكواليس مسلمة خاتمتها لنواح ناي حزين تثنّىَ لتأثيره الجسد كأنه يتلظىَ .. قليلاً ، واستعادَ كينونة التكور الأولى ..

بغفلةٍ من الفضول الحذر المكتسح دواخل الحضور ..

في غمرةِ التفرُّسِ والانتظار هطلَ خيطُ نورٍ تشربته خثرة دماء .. امتزج معها مُصاحَباً بانهيال مُندلق احتلَّ رقعةً حسيرةً من الأرضية الخشبية فهَّيجَ في نفوسِ المتطلعين / المستوفزَين ريبةً جارفةَ احتبست لها أنفاسهم ، وانقبضت مُتكلّسةً في الصدور .. جمعتهم شراكة الإحساس ففاهوا :

هذا مُخرِّجٌ يُعرّي عورات ضعفنا ويُجسّد انهزامية وجودنا ... إنه يدفعنا إلى خشية مخلبية بلذاذات غامرة من مازوشية طاعنة .

وقبل استمرار تيار الإفضاء انسلّ صوتٌ وتري وئيد . خطأ تماماً مع تحرك المزيج اللوني المريب باتجاه التكوّر الأنسي الذي لم يسمع الجالسون منه سوىَ أنفاساً تتبعثر ،، ثم ...... هجمت آلة هوائيّةٌ بمثابة بوق ،،، .... ،،، تقاتلت الألوان واشتبكت حاميّةً في تهافتات ألوان الجسد ... تمازجت أصواتٌ أحدثتها حشودُ ألآلات ... انطلقت كاستجابةٍ لإيعازِ البوق ،، ثم رويداً تقهقرت – هبوطاً – إلى ما وراء حجابات السكون تاركةً فسحةً لصرخةٍ فجرّها الطفلُ الصغير جمّدت سخونةَ المشهد فتوقّف العرض ، وجعل الجسد الأنثوي المؤدي الدور بنجاح آسر ينهض مصعوقاً ، فيما اشتعلت الأضواء من السقف المُلغَّم بالمصابيح فاكتسح النورُ فضاءَ القاعةِ ، دافعاً جحافلَ العيون تُسقط رعبَها على الطفل الصارخ / المتململ / المحتج ..

زلة 2002